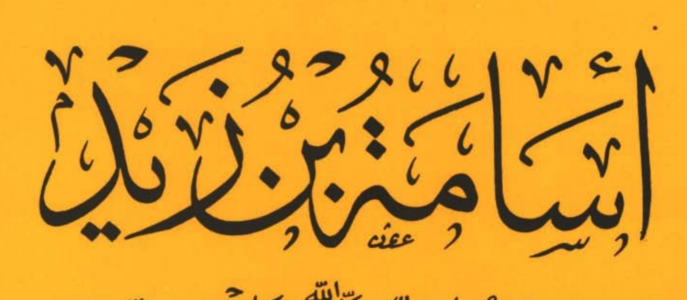
أعلام المسلمين
٢٠



أسامة بن زيد

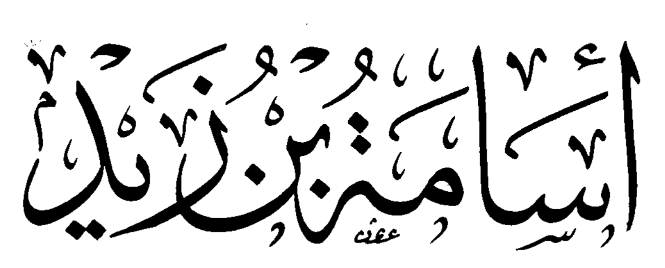
حِبّ رسول الله ﷺ وابن حِبّه

الدكتور وهبة الزحيلي

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين

٢٠



حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حِبّه

٩ ق هـ - ٥٤ هـ

الدكتور وهبة الزحيلي

دار القلم
دمشق

هذا الرجل

« إن أسامة بن زيد أحبُّ الناس إلي ـ أو من أحبِّ الناس إلي ـ وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم ، فاستوصوا به خيراً » .

ابن عمر عن رسول الله

« إنه ـ أي أسامة ـ لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

رسول الله

« كان النبي ﷺ يأخذني والحسن ، فيقول : اللهم إني أُحِبُّهما ، فأحِبَّهما » .

الإمام أحمد عن أسامة

« كان نبي الله ﷺ يأخذني ، فيقعدني على فخذه ، ويقعد الحسن بن علي على فخذه الأخرى ، ثم يضمنا ، ثم يقول : اللهم ارحمهما ، فإني أرحمهما » .

الإمام أحمد عن أسامة

« كان عمر بن الخطاب إذا لقي أسامة ، قال : مرحباً بأميري ... فإذا رأى أحداً يَعْجَب منه ، قال : لقد أمَّره علي رسول الله ﷺ » .

تاريخ ابن عساكر

الطبعة الثالثة
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقـــدّمَة

الحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على محمد نبي الرحمة ، وهادي الأمة ، وخاتم النبوة ، وعلى آله وصحبه مشاعل النور والهداية ، وسلّم تسليماً . وبعد :

فكلما تأملنا وتأملنا لواقعنا المعاصر ، وقارنا حال المسلمين اليوم من التفرق والضعف والتخلف واستعلاء الأعداء عليهم ، وحال الأمم الأخرى من الوحدة والقوة والتقدم والتفوق وإثبات الذات ؛ كلما خطر ببال المسلم وإحساسه وعقله مثل هذه الخاطرة السريعة والمقارنة العابرة ، كلما ازداد حباً ، وامتلأ إعجاباً وإكباراً بالصحب البررة الكرام ، الذين وضعوا البُنَى الأساسية الأولى لمجد الإســلام ، وعزته ، ومكانته ورفعته بين العالمين ، بتحملهم مسؤولياته الملقاة على عواتقهم جميعاً أفراداً وجماعات ، صغــاراً وكباراً ، نساءً ورجالاً .

ولا يعني هذا التأمل بداهة مجرد التفاخر والتــواكل ، والاعتماد في الحاضر على الأحساب وأمجاد الأُلى ، فهذا لايفيدنا شيئاً في مجال البنــاء والنهضة ، إلا من زاويــة استلهام روح

البطولات الرائدة ، ومعرفة العناوين البارزة ، التي لابد منها للرمز في حياة كل أمة ، حتى إن الأمم الفقيرة بالأمثلة التاريخية الغابرة تخترع أساطير وحكايات عن شخصيات وهمية لدفع شعوبها نحو الحركة والتقدم والبناء . وتاريخنا ــ ولله الحمد ــ غني حافل بوقائع نادرة لشخصيات حقيقية ، دونت أخبارهم بكل صدق ودقة وأمانة ، وبيّن فيها الغث الهزيل ، أو الضعيف المكذوب الموضوع ، من الصحيح الثابت الأكيد المعقول .

وذلك مما يجعل المرء مطمئناً إلى صحة المنقول غالباً ، ويصبح الحديث عن السلف الصالح عنواناً طيباً صالحاً لبعث الحياة من جديد ، وتجديد الأمل ، واستعذاب المنى ، وتفجير الطاقات والقوى ، وإحداث الهزات الجذرية ، والتغييرات الفورية الثورية في جيل الاسلام وأمة الحاضر للاتجاه نحو الأفضل ، والعمل من أجل غد مشرق ، ومستقبل باسم مليء بالأمجاد لا مجال فيه لمتخاذل أو مستضعف ، أو متردد ، أو مبتدع مارق .

واعتقادنا واضح أن طريق العلاج أولاً هو بما صلحت به الأمة في صدر الاسلام : وهو العمل بالقرآن العظيم وبسنة خاتم النبيين ، اللذين يدعوان إلى الجهاد الداخلي والخارجي ، والاتحاد والتعاون ، والبناء والإعداد .

فليس الكلام الشيّق المفصّل عن حياة صحابي كأسامة بن زيد مجرد قصة أو ترجمة عابرة للتسلية وشغل الوقت ، كأغلب

قصص وثقافات السوق الرائجة ، وإنما لتبيين مـوطن العبرة ، وموضع العظة ، ومعرفة طريق الأمل والنور ، وفهمهم سبيل الإنقاذ المتعين للمسلمين من واقع التردي والانحدار ، والضياع ، والحيرة والترنح في تطبيق تجارب مستوردة عن الأمم الأخرى ، رغـم الكثرة والثروة عندنا ، وتوفر سبل المعرفة والعلم والثقافة لدينا ، ووضوح وسائل النهضة وبناء المجد ، وتحقيق الغلبة في مبادئنا ، أو على الأقل الحفاظ على المكاسب الموروثة ، والبلاد الغالية ، والأوطان العزيزة ــ لهذا قال مؤرخو السيرة والتراجم : « القصد من ذكر أخبار الأخيار شرح أحوالهم ، وأخلاقهم ، ليقتدي بها السالك » .

ولسنا ضد الإفـادة المطلقة من النافع المفيد عند غـيرنا ، فالحكمة ضالّة المؤمن أينما وجدهـا التقطها ، وظروف العصر وحاجاته تستلزم التعايش معها ، والسير في فلكها . إنما نحن ضد التجارب التي لم يثبت مدى صحتها ، أو التي تتنافى مع بيئتنا ، وتنبو عن موازين عقيدتنا ، وتتنافر مع مبادىء شريعتنا ، وأصول الوحي الإلهي لنا ، وتقطع عرى علاقتنـا الاجتماعية ، وتهدم أو تضعف ارتباطنا بمقدساتنا ، وتشوّه معالم تاريخنا ، وتتصادم مع أخلاقنا .

والسبب واضح في تفضيل الكلام عن الصحابة الذين عاصروا الرسول ﷺ ، وشاهدوا الوحي ، لأن شخصية الصحابي رمز للكمال النسبي ، وتعبّر حياته عن تكامل شخصيته علماً وعقلاً ،

وأدباً وخلقاً ، وتديناً والتزاماً ، ورجولة وتضحية وجهاداً دائماً في سبيل المبدأ والغاية ، وفي سمو من الاخلاص ، وطلب لرضوان الله وحده ، لا من أجل حظوظ نفسية ، ومطامع مادية ، وشهرة زائفة، ومجد زائل .

والصحابة كلهم تمثّلوا الاسلام قرآنه وسنته ، وعياً وأداء ، وتطبيقاً واعتقاداً ، فكانوا جميعاً عدولاً ، استحقوا أن يكونوا خير القرون[1] ، وخير أمــة أخرجت للناس . وقد ثبتت عدالة جميعهم بثناء الله عزوجل عليهم وثناء رسوله ﷺ ، قال تعالى في بيــان أوصافهم : « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم رُكّعاً سُجّداً ، يبتغون فضلاً من الله ، ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود » . وقال عزوجل في بيان استحقاقهم رضوان الله :« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، رضي الله عنهم ورضوا عنه » .

وأعلن الحق سبحانه امتياز الصحب البررة بقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر،

(١) القرن : ثمانون سنة ، وقيل : ثلاثون سنة ، وقال زرارة ابن أوفى : القرن مائة وعشرون سنة . والمعروف اليوم : أنه مائة سنــة .

وتؤمنون بالله » . قال بعض العلماء : كنتم بمعنى أنتم خير أمة ، وقيل : كنتم في علم الله [1] .

وقال النبي ﷺ : « ألا إنكم توفون تسعين أمة ، أنتم خيرها ، وأكرمها على الله » [2] .

وقد نهى النبي ﷺ عن إيذاء أصحابه ، فقال : « لاتسبّوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق ملء أُحُد ذهباً ، ما بلغ مُدَّ أحدهم ، ولا نَصِيْفَه » [3] .

وتجلّت خيريتهم فيما روى ابن القاسم عن مالك أنه سمعه يقول : لما دخل أصحاب رسول الله ﷺ بالشام ، نظر إليهم رجل من أهل الكتاب ، فقال : ما كان أصحابُ عيسى بن مريم الذين قُطعوا بالمناشير ، وصُلبوا على الخشب بأشد اجتهاداً من هؤلاء .

وقال رسول الله ﷺ : «خير الناس قَرْني،ثم الذين يلونهم،

---

(١) روي عن مجاهد انه قال : كانوا خير الناس على الشرط الذي ذكره الله تعالى ، يأمرون بالمعروف ، ويَنْهَوْن عن المنكر ، ويؤمنون بالله . وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : من سَرَّه أن يكون من تلك الأمة ، فليؤدّ شَرْط الله فيها .

(٢) رواه بَهْز بن حكيم بن معاوية بن حَيْدة القشيري عن أبيه عن جده .

(٣) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري .

ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادةُ أحدهم يمينه ، ويمينُه شهادته »[1] .

وأسامة بن زيد أحد هؤلاء الصحب الذين كانوا غـرَّة في جبين التاريخ ، فهو صحابي جليل ، تربى في بيت النبوة ، ونشأ في ظل الاسلام النقي ، واشترك على حداثة سنه في معارك عديدة ، وكان القائد الفتى المظفر دون العشرين من العمر . ولئن كان في اجتهادات القضاة أحياناً وضع مبادىء ، أو بروز قضايا ذات مبدأ يسير على هَدْيها القضاة ، فإن في قيادة أسامة الحربية مبادىء تستحق التنويه والإشادة ، أو التحليل والدرس والعظة .

وسيظل التاريخ ناطقاً بمثلين بارزين في حياة أسامة :

أولهما : أنه أول قائد شن حربــاً وقائية مخيفة على دولة الروم العظمى في بلاد الشام بجيش من ثلاثة آلاف مقاتل فقط ، فهو قائد ابن قائد ، وهو الحب ابن الحب مولى رسول الله ﷺ .

ثانيهما : أنه القائد الفتى الذي تأمَّر على جيش فيه عمر بن الخطاب وكبار الصحابة ، ثم شيّعه أبو بكر بعدما استخلف ماشياً خارج المدينة ، وأسامة راكب .

وذلك دليل حي على أن الكفــاءة ليست بالسن ، كما أن أسامة كان أحــد الملَوَّنين السود الذين نعموا في ظل الاسلام

---

(1) رواه أحمد في مسنده والشيخان والترمذي عن ابــن مسعود .

بمبدأ المساواة الفعلية مع كبار القرشيين ، بل مع الحسن الأبيض المتورد الخدين سِبْط رسول الله ﷺ .

وكان لأسامة مواقف جريئة مع حاكمين مرهوبين هما معاوية ابن أبي سفيان ومروان بن الحكم ، سنعرفها .

وكل ما ذكر ونحوه يصلح أنموذجاً فـذاً لشباب الاسلام المعاصر ، بل للمسلمين قاطبة حيث انقلبوا ــ بعد تخلّيهم عن روح الاسـلام ومادته ومعناه ــ من العزة والقـوة إلى الذِّلة والضعف ، ومن الرجولة إلى الأنوثة ، ومن الأخلاق المتماسكة إلى التحلل والضياع ، ومن الجهاد الذي يقض مضاجع العدو في عقر داره ، إلى استسلام وتسليم للبلاد وارتماء في أحضان الأعداء واستجداء واستغاثة وعويل وصراخ ، حل محل مواجهة العدو بالقوة ، والاستظهار عليه بالبطولة : « لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادّون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ... » .

رضي الله عن أسامة في الخالدين ، ورحم الله أسامة وإخوانه من الصحابة الغر الميامين ، فمـا عرف التاريخ أعظم ولا أخلص ولا أنبل من صحابة رسول الله . ولقد أكبرهم المسلمون وأحبوهم على مدى التاريخ ، ولست بأول ولا آخر المحبين لهم ولأسامة أميرهم ، فتسمى الكثيرون بأسمائهم ، تخليداً لذكراهم العظيمة ، وسميت أحد أبنائي « أسامة » . نفعنا الله جميعاً بسيرة أسامة وأمثاله ، وحشرنا معهم في جنان الرضوان .

خطـة البحث :

الشخصية المتكاملة لاتحتمل التجزئة ، ودراستها الشيقة لا تنتظر الفواصل ، لأن القارىء سرعان ما تجتذبه الصفـات العالية المتناسقة ، وإنما نضطر أحياناً إلى اتبـاع منهج الفصول تسهيلاً للاطلاع ، وإبرازاً لأدوار ومراحل ومواقف العظماء ، لذا سيكون الكلام عن أسامة في فصول ستة :

الفصل الأول ـ حياة اسامة الشخصية (١) .

الفصل الثاني ـ مع النبي ﷺ .

الفصل الثالث ـ اوصافه الجسدية وفضائله الإنسانية .

الفصل الرابع ـ جهاد القائد الفتى .

الفصل الخامس ـ منزلته عند النبي ومكانته بين الصحابة .

الفصل السادس ـ مكانته العلمية ، اعتزاله الفتنة .

خاتمة .

الدكتور وهبة الزحيلي

---

(١) لقد حرصت الا اذكر شيئاً عن اسامة إلا بمـا تدل عليه الروايات الموثوقة مع سرد الرواية نفسها ، دون تصرف فيهـا أو اجتزائها أو بتر بعضها ، كما يفعل عادة كثير من الكتاب الجدد ، وذلك ليظـل القارىء مرتبطـاً بالمصادر الأصلية ، وليتعـود على أسلوبهـا .

الفصل الأول

حياة أسامة بن زيد

الكلام عن أسامة في هذا الفصل يتناول معرفة اسمه ونسبه وكنيته ، واسم أبويه ، وتاريخ ولادته ووفاته ، وفرح المسلمين بولادته ، ومكان دفنه ، وتربيته في بيت النبوة ، وكيفية صلة أبيه بالنبي ﷺ ، وسكناه في دمشق[1] .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٦١/٤ وما بعدها ، ٧٢ ، الاستيعاب لابن عبد البر : ٧٥/١ ، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير : ٦٤/١ ، الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر : ٣١/١ ، ٢١٢/٨ ، تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢٠٨/١ ، تقريب التهذيب لابن حجر : ٥٣/١ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩١/٢ وما بعدها ، ٣٩٩ ، صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢١٠/١ ، الأعلام للزركلي : ٢٨١/١ وما بعدها ، العبر في خبر من غبر لمؤرخ الاسلام الذهبي : ص ٥٩، عمدة القاري شرح صحيح البخاري : ٢٣٤/١٦ .

١ ـ اسمه ونسبه وكنيته :

هو أسامة بن زيد ، بن حارثة ، بن شراحيل ، بن كعب ، ابن عبد العزّى ، بن زيد ، بن امرىء القيس ، بن عامر ، بن النعمان ، بن عامر ، بن عبد ودّ ، بن عوف ، بن كنانة ، بن بكر ، ابن عوف ، بن عُذْرة ، بن زيد اللات ، بن رُفَيْدة ، بن ثور ، ابن كَلْب ، بن وَبْرة الكلبي .

فهو ذو نسب عربي أصيل ، ينتمي لكنانة عوف ، ومن أصوله مشاهير العرب في اللغة والبيان كامرىء القيس ، وزيد اللات . كما أنه ينتمي لقبيلة معروفة بشدة المراس والصلابة والحزم والحروب ، هي قبيلة كلب ، قال البخاري في تاريخه ، ومسلم : يقال : إن زيداً من كلب من اليمن .

وكنيته :

أبو محمد ، ويقال : أبو زيد ، ولقبه : الحِبّ ابن الحِبّ ـ مولى رسول الله ﷺ ، كان يسمى حِبّ رسول الله ، ويقال له : أسامة الحِبّ أي المحبوب ـ .

٢ ـ ابواه :

ولد من أبوين كريمين لهما صلة مباشرة بالنبي ﷺ ، فأبوه زيد بن حارثة مولى رسول الله ، وغلامه ، وابنه بالتبني قبل تحريم التبني في الاسلام ، فكان يقال له : زيد بن محمد . وظل يدعى

كذلك حتى بعد البعثة النبوية إلى أن أبطل الاسلام التبني [1] بقوله عز وجل : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » « ادعوهم لآبائهم، هو أقسط عند الله » فأصبح يُدْعى : زيد بن حارثة[2] • وبه يظهر أن أبا أسامة كان من أحب الناس إلى قلب النبي •

وأمه هي « بَركة الحبشية »[3] المكنَّاة بأم أيمن حاضنة النبي ﷺ التي كانت مملوكة لآمنة بنت وهب أم الرسول عليه

---

(١) التبني : إلحاق ولد من غيره به ، ويسمى دَعيّاً وجمعه أدعياء . وقد حرمه الاسلام لمجافاته الصدق والنسب الحقيقي ، كما أنه يترتب على التبني مفاسد ومضار ، فإن قصرت الدولة مثلاً بتربية اللقطاء ، ورغب إنسان بإرواء نزعة الأبوة أو الأمومة لديه ، فلا مانع من تربية لقيط ، إنقاذاً له من الضياع والموت ، على أن لا يسجل ابناً في دائرة الأحوال المدنية ويخرج من الأسرة بعد البلوغ ، ويعامل كأجنبي عن الأسرة بالنسبة لعدم الإرث ، ويجوز الوصية له بشيء من المال بعد الوفاة ، أو هبته مالاً في حال الحياة .

(٢) روى البخاري وغيره عن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد ابن حارثة إلا زيد بن محمد ، حتى نزلت : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » .

(٣) بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان ، مولاة رسول الله ﷺ ، ورثها من أبيه عبد الله ، وقيل من أمه ، وحضنته وهو صغير ، توفيت سنة ١١ هـ (البداية والنهاية لابن كثير : ٦/٣٣٤) .

هذا والذي اظنه ان ام ايمن بركة هذه ليست حبشية ؛ إذ ←

الصلاة والسلام ، فربته في حياتها ، وحضنته بعد وفاتها ، فكان يقول عنها : هي أمي بعد أمي ، وبقية أهل بيتي • ولما ملكها النبي بعد وفاة أبويه ، أعتقها وزوجها زيد بن حارثة • وبه يتبين أن أم أسامة بمثابة أم النبي بعد أمه • وكان الرسول يزورها ، وكان أبو بكر وعمر يزورانها في منزلها ، كما كان النبي يزورها •

٣ ـ ولادته ووفاته وتوابعهما :

ولد أسامة في السنة التاسعة قبل الهجرة (٩ ق هـ) وتوفي سنة ٥٤ هـ ، ويقال : توفي سنة ٥٨ هـ • وقال ابن عبد البر عن القول الأول : وهو عندي أصح إن شاء الله • وقد فرح المسلمون بولادته ، لفرح النبي بذلك ، لأن أباه زيد ابن النبي بالتبني ، وموضع سرّه ، وأحب الناس إليه بعد الإسلام ، ومن أول الناس إسلاماً ؛ ولأن أمه حاضنة النبي ، وكانت بمثابة أم النبي بعد وفاتها • فكان للأبوين منزلة كبيرة عند النبي ، ومكانة عالية لهما في نفسه عليه السلام ، فما يفرحه ويسره يفرح ويسر المسلمين •

←

ليس من المعقول أن يكون لها هذا النسب العربي وهي حبشية . ويظن أن الرواة خلطوا بينها وبين خادمة أخرى للنبي ﷺ اسمها بركة الحبشية وكانت قد جاءت بها من الحبشة زوج النبي أم حبيبة .

وإن صح أن أم أيمن حبشية ، فإذن لا يصح لها هذا النسب.

أما بالنسبة لسنة وفاتها فقد قيل غير ما ذكرت ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه الاصابة هذه الأقوال وناقشها .

وكان عُمْر أسامة يوم وفاة النبي ﷺ عشرين عاماً ، على ما قرر أكثر كتاب التراجم، وقال ابن أبي خيثمة : ثماني عشرة[1].

واعتزل أسامة الفتن بعد قتل عثمان إلى أن مات وهو ابن خمس وستين سنة في أواخر خلافة معاوية .

وكان لأسامة عشرون ولداً ، قال محمد بن عمر : لم يبلغ أولاد أسامة من الرجال والنساء في كل دهــر أكثر من عشرين إنساناً [2] . وسنذكر في الفصل التالي قصة زواجه وأسماء بعض أولاده ، لصلة النبي بتزويجه .

وكان اعتزاله ومسكنه « المِزَّة »[3] من ضواحي دمشق بعد فتحها ، قال لــه معاوية : اختر لك منزلاً ، فاختار المزة . ثم رجع فسكن في ضيعة لــه في « وادي القرى »[4] ، ثم عاد إلى المدينــة فمات بهــا في « الجُرْف »[5] ، ثــم حُمل من « الجرف » إلى المدينة بعد موته ، ودفن فيها .

---

(١) وهذا الذي يوافق أن سنة ولادته هي ٧ ق هـ .

(٢) الطبقات الكبرى : ٤/٧٢ .

(٣) المزة : ضاحية من ضواحي دمشق في الجنوب الغربي من دمشق ، وقد اتصل بنيانها تقريباً بدمشق على بضعة كيلو مترات (نصف فرسخ) .

(٤) وادي القرى : واد بين المدينة والشام ، من أعمال المدينة، كثير القرى .

(٥) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو دمشق .

قال سعيد المَقْبُري : شهدت جنازة أسامة ، فقال ابن عمر : **عجّلوا بحِبّ رسول الله قبل أن تطلع الشمس .**

٤ ـ تربيته في بيت النبوة :

كان أبوه « زيد » من أول الناس إسلاماً ، عاش مع النبي على أنه ابنه بالتبني ، وولد له «أسامة» بمكة ونشأ في ظل النبوة، وترعرع وأدرك في بيت النبي وفي رعايته وتربيته ، فآمن بالاسلام منذ صغره ، ولم يعرف إلا الاسلام ديناً خالصاً لله تعالى ، ولم يدن بغير الاسلام عقيدة وعملاً وسلوكاً ، وتربى على أنه جندي للاسلام ، يضحي بكل شيء في سبيل عقيدته التي آمن بها ، وهاجر مع أبيه إلى المدينة ، وتقلب في أجواء الوحي والتنزيل القرآني . وكان رسول الله ﷺ يحبه حباً شديداً ، وكان عنده كبعض أهله[1] .

تربية عالية كهذه ، ونشأة إسلامية صرفة ، كفيلان بتكوين نفس على أحسن مايريد الاسلام ، عقلاً ووعياً ، وتفانياً في سبيل المبدأ والعقيدة ، وشجاعة وإقداماً ، وإيماناً راسخاً كالجبال ، وعلماً وفقهاً ، كل ذلك كان إرهاصاً ليصبح أسامة ـ وهو ابن ثماني عشرة سنة ـ أحد مشاهير قادة الاسلام .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٢/٢ ، الطبقات الكبرى : ٦١/٤ .

٥ ـ صلة زيد أبي أسامة بالنبي :

إنها لعناية إلهية أدركت زيداً ليكون في عداد أسرة النبي ﷺ ، وإنها لسعادة كبرى لم يحظ بها عربي في التاريخ • وقع في الأسر والسِّباء ، إذ كان شأن السبي الوقوع في قيد العبودية ولكنها الألطاف الربانية ، نقلته مـن العبودية إلى الحرية وتبني النبي ﷺ له • وهذا ماتم لزيد [1] •

فقد قامت سُعْدى بنت ثعلبة بن عبد عامر من بني معن من طيء أم زيد بزيارة قومها،ومعها ابنها زيد بن حارثة الكلبي،فأغارت خيل لبني القَيْن بن جسر في الجاهلية ، فأخذوا المال والإبل ، وسبوا الذراري (النساء والصبيان) ، وكان زيد وهو غلام يفعة في الثامنة من عمره ممن وقع في السباء ، فأتوا به سوق عُكاظ[2]، فعرضوه للبيع ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، بأربعمائة درهم •

فلما تزوج الرسول ﷺ بخديجة ، وهبته له ، فتبناه الرسول

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦١/٤ ، عمدة القاري شرح البخاري : ٢٣١/١٦ ، الاصابة لابن حجر : ٥٦٣/١ ومابعدها، الاستيعاب لابن عبد البر : ٥٤٢/٢ ـ ٥٤٧ ، تقريب التهذيب : ٢٧٣/١

(٢) سوق عكاظ : اشهر أسواق العرب في الجاهلية ،للاقتصاد والأدب في الأشهر الحرم،يبيعون ويشترون منتجاتهم ، ويتناشدون الأشعار ، وذلك بناحية في عرفة .

بمكة قبل النبوة ، وهـو ابن ثمان سنين ، وأعلم قريشاً بذلك ، وقال واقفاً به بالحِجْر[1] على ملأ من قريش : يا معشر قريش ، اشهدوا أن هذا ابني يرثني وأرثه .

وحزن أبو زيد لسبيه ودله على موضعه وفد من الحجاج من قوم زيد ، فخرج أبوه حارثة وعمه كعب ، لفدائه ، فقدما مكة، فسألا عن النبي ﷺ ، فقيل : هو في المسجد ، فدخلا عليه ، وقالا:

يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله وجيرانه ، تفكّون العاني (الأسير) وتطعمون الجائع وتغيثون الملهوف ، وقد جئناك في ابننا عندك ، فامنُن علينا ، وأحسن إلينا في فدائه ، فإنا سنرفع لك في الفداء أي ما تشاء .

قال : ومَنْ هو ؟ قالوا : زيد بن حارثة . فقال رسول الله ﷺ : فهلاّ غير ذلك ؟

قالوا : وماهو ؟ قال : أدعوه فأُخيِّره ، فإن اختاركم فهو لكم ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختارُ على من اختارني أحداً .

قالا : قد زدتنا على النَّصَف[2] ، وأحسنت .

فدعاه ، فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : مَنْ هذا ؟ قال : هذا أبي ، وهذا عمي .

---

(١) هو حجر الكعبة : وهو ماحواه الجدار القصير من البيت .

(٢) النصف : أي الإنصاف .

قال : فأنا من قد علمتَ ، ورأيت صُحبتي لك ، فاختَرْني أو اخترهما .

قال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أنت مني مكان الأب والعم .

فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعَمّك ، وعلى أهل بيتك !

قال : نعم ، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً .

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك ، أخرجه إلى الحِجْر ، فقال : يا من حضر ، اشهدوا أن زيداً ابني ، يرثني وأرثه .

فلما رأى ذلك أبوه وعمّه ، طابت نفوسُهما ، فانصرفا ، ودُعي : زيد بن محمد ، حتى جاء الاسلام فنزلت : « ادعوهم لآبائهم » فدعي : زيد بن حارثة . ودُعي الأدعياء إلى آبائهم . فدعي المقداد إلى عمرو ، وكان يقال له قبل ذلك : المقداد بن الأسود ، لأن الأسود بن عبد يغوث ، كان قد تبناه .

قال الزهري : ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة . وروي عن الزهري أيضاً : أن أول من أسلم خديجة .

وشهد زيد بدراً . وزوجه رسول الله ﷺ مولاته أم أيمن ، فولدت له أسامة بن زيد ، وبه كان يكنى ، كما زوجه النبي بعدئذ زينب بنت جحش ، وهي بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب .

وكان يقال لزيد بن حارثة : حِبُّ رسول الله ﷺ . روي عنه ﷺ أنه قال : أحب الناس إليَّ : من أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ـ يعني زيد بن حارثة ـ أنعم الله عليه بالاسلام ، وأنعم عليه رسول الله ﷺ بالعتق .

وأخرج ابن سعد بإسناد حسن وهو عند أحمد مطوّل ، أن النبي ﷺ قال لزيد بن حارثة : « يا زيد أنت مولاي ومني وإلي، وأحب القوم إلي » .

ويقال : إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم سمّاه : « زيداً » لمحبة قريش في هذا الاسم ، وهو اسم قصي .

فدعاه المسلمون بـ « زيدِ الحِبِّ » وأطلقوا عليه لقب « حِبّ » رسول الله ، أي محبوبه ، ولقبوا ابنه أسامة من بعده بحِبِّ رسول الله ، وابن حِبّه .

واستُشهِد زيد بن حارثة بمؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة ، وهو ابن خمس وخمسين ، وهو أمير جيش تلك الغزوة ضد الروم ، المكوّن من ثلاثة آلاف مقاتل ، وقال رسول الله ﷺ : أمير الناس زيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة ، فإن قتل فليرتضِ المسلمون بينهم رجلاً ، فليجعلوه عليهم . وعقد لهم رسول الله ﷺ لواءً أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة . ثم بعد استشهاد القادة الشجعان الثلاثة ، اصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فأخذ اللواء ، فقال

رسول الله : الآن حمي الوطيس ! ففتح الله عليهم . وقال خالد : اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية . وهكذا أحدث خالد انقلاباً في تنظيم صفوف المسلمين ، فخيِّل للروم أن مدداً كبيراً قد جاء من عند النبي ﷺ، فتقاعسوا عن مهاجمة خالد ، فأمر جنده بالتراجع مع حماية ظهورهم ، وترقب العدو ، حتى تم الانسحاب . فلما عاد الجيش إلى المدينة ، تلقَّاهم رسول الله ﷺ والمسلمون بالجُرْف ، فجعل الناس يحثون على الجيش التراب ، ويقولون : يا فُرار ، فررتم في سبيل الله ؟ ! فيقول رسول الله ﷺ : ليسوا بالفُرَّار ، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى[1] .

وهكذا نسج الحب المتبادل والتقدير العميق بين النبي وزيد نسيجاً لاتنفصم عراه ، ولا تبلى للأبد لحمته وسداه ، فقد حظي زيد بحب النبي ، وسرى هذا الحب في دمه ولحمه ، وامتد بكل قواه إلى ولده وفلذة كبده : أسامة ، وأنتج الحب الصادق توأمين: الأب وابنه ، وأصبح زيد وابنه الحِبّ وابن الحِب مثلين رائعين ورمزين خالدين للحب الخالد والعاطفة المخلصة الصافية . فهنيئاً لمن طفح قلبه بحب النبي ، وهنيئاً ألف مرة لمن أحبه النبي صلوات الله وسلاماته عليه .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٢/٢٨ وما بعدها ، الروض الأنف للسهيلي : ٢/٢٦٠ ، سيرة ابن هشام : ٢/٣٨٢ ، البداية والنهاية : ٤/٢٤٨ ، تاريخ الطبري : ٣/١٠٩ .

فهل من المستغرب بعدئذ أن يبيــع الوالد أو الولد نفسه رخيصة في سبيل الله ، فيسْتَشْهد الأب ، ويتصدر الابن لقيادة جيش يأتمر بأمره عمر وكبار الصحابة ؟ إنه الاسلام قبل وبعد كل شيء الذي جعل الموت في سبيل المبدأ هو غايــة المؤمن ، سواء أكان هذا المؤمن كبيراً في ظل قيادة صغير ، أو صغيراً يرأس جيشاً لامجال للشيطان في ملء قلب صاحبه بالهوى والوسواس والعجب والكبر ، وحب التسلط والسيطرة .

٦ ـ الطعن في نسب أسامة :

زيد بن حارثة رجــل أبيض من اليمن ، وامرأته أم أيمن حبشية الأصــل سمراء ، وأسامة ابنه الذي ولدته أسود [١] ، فارتاب الناس في زيد وابنه ، وتماروا في ذلك ، وطعنوا في نسب أسامة ، وتكلموا بقول كان يسوء رسول الله ﷺ بسبب اختلاف اللون .

وإذا أراد الله تعالى ستر إنسان هيأ له الأسباب : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » ؛ فحدث ذات مرة أن كان زيد بن حارثة

---

(١) قال ابو داود : كان اسامة اسود ، وكان زيد ابيض . وقال ابراهيم بن سعد : كان زيد احمر ابيض اشقر ، وكان اسامة ابن زيد مثل الليل (نيل الأوطار : ٢٨٢/٦ ، تهذيب تاريخ ابــن عساكر : ٣٩٣/٢) .

وأسامة بن زيد مضطجعين ، فدخل ــ صدفةً ــ قائف[1] ورسول الله ﷺ شاهد ، فقال : هذه الأقدام بعضها من بعض ، فسُر بذلك النبي ﷺ وأعجبه[2] .

أثر القيافة في السنة :

تضافرت كتب السنة النبوية على نقل خبر هــذه الواقعة المفرحة المثيرة بأسانيد صحيحة . قالت عائشة : إن رسول الله ﷺ دخل عليَّ مسروراً تبرُق أسارير[3] وجهه ، فقال : ألم تَرَيْ أن مُجَزِّزاً[4] نظر آنفاً إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد ، فقال : إن هذه الأقدامَ بعضها من بعض ؟! رواه الجماعة .

وفي لفظ أبي داود وابن ماجــه ، ورواية لمسلم والنسائي والترمذي : « ألم تَرَيْ أن مُجَزِّزاً المُدْلجيَّ رأى زيــداً وأسامة ، قد غَطَّيا رؤوسهما بقطيفة ، وبدت أقدامُهما ، فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض » .

---

(1) القائف : هو الذي يعرف النسب بفراسته ونظره إلى اعضاء المولود .

(2) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٢ ، الطبقات الكبرى : ٤/٦٣ .

(3) الأسارير في الأصل : خطوط الكف ، أطلق على ما يظهر على وجه من سره أمر ، من الإضاءة والبريق .

(4) مجزز : اسم فاعل من الجز ، لأنه جز نواصي قوم .

وفي لفظ قالت : « دخل قائف ، والنبي ﷺ شاهد ، وأسامة ابن زيد وزيد بن حارثة مضطجعان ، فقال : إن هـذه الأقدام بعضها من بعض ، فسر بذلك النبي ﷺ وأعجبه ، وأخبر به عائشة » . متفق عليه . قال أبو داود : كان أسامة أسود ، وكان زيد أبيض[1] .

وبهذا ألقم القائف العربي المدلجي حجراً أفواه قالة السوء، وتبرأ زيد وابنه من الاتهامات الباطلة ، وحمى الله الشرفاء الذين رُبّوا في مهاد النبوة وفي رعاية النبي من كل قول قبيح . وليس الأمر بغريب ، لأن قضية اللون والشبه بالأب لايلزم أن تكون سبباً في نفي النسب ، ولا تلازم أحياناً بين لوني الأب والابن ، فقد يكون الأب أبيض والابن أسود .

واقعة مشابهة :

وتكرر في عصر الرسول عليه السلام مثل هذه الواقعة . روى الأئمة الستة إلا مالكاً عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً أتى النبي ﷺ ، فقال : ولد لي غلام أسود ، وهو يُعرِّض بأن ينفيه[2] ، فلم يرخص له في الانتفاء منه ، فقال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم ، قال : ما ألوانها ؟ قال : حُمْر ، قال : هل فيها من

---

(١) نيل الأوطار : ٢٨٢/٦ ، منتخب كنز العمال : ١٣٥/٥ .

(٢) أي أن ينفي نسبه عنه بأيمان اللعان الخمسة المتكررة في سورة النور : الآيات (٦ ــ ٩) .

أوْرَق[1] ؟ قال : نعم ، قال أنَّى ذلك ؟ قال : لعله نزعه عِرْق ، قال : فلعل ابنك نزعه عرق[2] !!

رأي الفقهاء في القيافة :

استنبط الفقهاء من حادثة القائف مع زيد وأسامة : أنه يثبت النسب بالقيافة ، قال الخطابي : في حديث عائشة دليل على ثبوت العمل بالقيافة ، وصحة الحكم بقولهم في إلحاق الولد ، وذلك لأن رسول الله ﷺ لايظهر السرور إلا بما هو حق عنده .

وقد أثبت الحكم بالقيافة عمر بن الخطاب وابن عباس وعطاء والأوزاعي ومالك والشافعي وأحمد[3] .

ولكن لاحكم للقيافة مع ثبوت الفراش في ثبوت النسب عملاً بحديث : « الولد للفراش وللعاهر الحجر »[4] .ولا يعترض بأن أسامة قد ثبت فراش أبيه شرعاً ، فنسبه ثابت ، وإنما أخذ

---

(١) الأورق : الأسمر ، والوُرقة : السمرة ، يقال : جمل أورق ، وناقة ورقاء (النهاية : في غريب الحديث والأثر لابن الأثير : ١٧٥/٥) .

(٢) جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد لابن سليمان الروداني : ٦٢٤/١ ، نيل الأوطار : ٢٧٨/٦ .

(٣) نيل الأوطار: ٢٨٢/٦ وما بعدها،سبل السلام: ٢١٢/٣ .

(٤) متفق عليه من حديث ابي هريرة ، وقد رواه الجماعة إلا ابا داود (نيل الأوطار : ٢٧٩/٦ ، سبل السلام : ٢١٠/٣) .

بالقيافة في تلك الحادثة ـ أي وفي غيرها ـ لصدٍّ المتقوّلين بسبب اختلاف اللون بين زيد وأسامة .

ومما يؤيد العمل بالقيافة أنه ﷺ قال لأم سُليم لما قالت: أَوَتحتلم المرأة ؟ : « فمن أين يكون الشبه » وقال : « إن ماء الرجل إذا سبق ماء المرأة ، كان الشبه له » وقال في قصة اللّعان : « إن جاءت به على صفة كذا ، فهو لفلان ، أو على صفة كذا فهو لفلان » فإنه دليل الإلحاق بالقيافة والعمل بها ، لكن لم يعمل بها في هذه القصة بسبب أيمان اللعان التي منعت عن إلحاق نسب الولد بالملاعن[1] .

* * *

(١) نيل الأوطار : ٢٨٣/٦ ، سبل السلام : ٢١٢/٣ .

الفصل الثاني

في صحبة النبيّ
صلى الله عليه وسلم

تميَّز أسامة بمقومات شخصية فريدة ، وانفرد من بين الصحب الكرام بحبّ الرسول ﷺ ، وحظي بقُرْب لصيق بقلب النبي ، لأنه كان يتمتع على حداثة سنه بالنباهة والفطنة والذكاء والحكمة والأدب الجم والحياء الكثير ، مما بوأه أن يكون أثيراً مكرَّماً عند النبي ، ينشأ في بيته ، ويترعرع في ظله ، ويعيش في رعايته ، ويتربى في كنفه ، فصار ذا منزلة عالية عند النبي ، ومستشاراً له في بعض الأمور ، وشفيعاً في بعض القضايا إذا لم تمس الشفاعة مبدءاً من مبادىء الاسلام الكبرى .

دل على ذلك مظاهر متعددة ، ومواقف رائعة ، جسَّدت فيه وفي أمثاله مبدأ الاسلام العظيم وهو المساواة بين المسلمين في الحقوق والواجبات .

اولاً ــ حب النبي لأسامة :

اشتهر أسامة بكونه حِبّ رسول الله وابن حبّه ، وتلك منزلة فريدة يغبطه عليها سائر المسلمين ، حتى إنه احتل رتبة الحب بعد ابنته فاطمة ، وقبل علي بن أبي طالب ، مما يظهر من الوقائع التالية :

كان النبي ﷺ يقعد أسامة على فخذه ، ويقعد الحسن على الفخذ الآخر ، ويقول : « اللهم ارحمهما ، فإني أرحمهما » أو « اللهم أحبّهما ، فإني أحبّهما » . قال أسامة واصفاً ذلك : إن رسول الله ﷺ كان يأخذني ، والحسن بن علي ثم يقول : « اللهم أحبهما فإني أحبهما »[1] . وبه تساوى في الحب مع الحسن . وشاع أمر حبه بين الصحابة ، فحكى القصة ابن عمر قائلاً : إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : « أحب الناس إلي أسامة ماخلا فاطمة ، ولا غيرها » .

وأكد القصة آخرون ، حدّث هشام بن عروة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أسامة بن زيد لأحب الناس إلي ، أو من أحب الناس إلي ، وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم ، فاستوصوا به خيراً »[2] .

---

(١) الطبقات الكبرى : ٤/٦٢ ، تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٣ ، جامع الأصول : ١٠/٢٧ . ويلاحظ أن الروايتين صحيحتان موجودتان عند البخاري ، والرواية الأولى في مسند أحمد أيضاً : ٥/٢٠٥ .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عمر ، راجع الاستيعاب : ١/٧٦ ، جامع الأصول : ١٠/٢٦ .

وقالت عائشة : لاينبغي لأحد أن يبغض أسامة ، بعدما سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كان يحب الله ورسوله ، فليحب أسامة » وقال أيضاً : « أسامة أحب الناس إلي » .

وليس الحب الصادق حديثاً عابراً ، أو مجرد عاطفة قلبية ، أو ابتغاء مصلحة أو غاية ، وإنما هو تفانٍ في سبيل المحبوب ، ورعاية مصالحه ، والحفاظ عليه ، في الواقع البارز ، لافي حدود النظريات والفرضيات . ومما يلفت النظر إلى صدق الحب النبوي لأسامة حادثتان غريبتان بعد النبوة لاقبلها :

١ ــ أخرج مسلم عن عائشة أنها قالت : أراد رسول الله ﷺ أن يمسح مخاط أسامة ، فقلت : دعني حتى أكون أنا التي أفعله ، فقال : يا عائشة : أحبِّيه ، فإني أحبه [1] .

٢ ــ وقالت عائشة أيضاً : دخل أسامة على النبي ﷺ ، فأصابته عَتَبَة الباب ، أو أسْكُفَّة الباب ، فشج في وجهه ، أو شج في جبهته ، فقال : يا ابنة أبي بكر ، قومي فامسحي عنه الأذى أو يا عائشة : أميطي عنه الدم ، فتقذَّرته ، فقام إليه النبي ﷺ ، فجعل يمص شَجَّتَه ويَمُجُّه ، ويقول : لو كان أسامة جارية ، لكسوته ، وحَلَّيته ، حتى أنفقه للرجال .

---

(١) أخرجه البخاري عن أسامة ، راجع تاريخ ابن عساكر : ٣٩٥/٢ ، جامع الأصول لابن الأثير : ٢٧/١٠ .

وروى ابن سعد : أن أبا السَّفَر (هو سعيد بن محمد) قال : بينما رسول الله ﷺ جالس هو وعائشة ، وأسامة عندهم ، إذ نظر في وجه أسامة فضحك ، ثم قال : أما والله ، لو أن أسامة جارية لحليتها وزينتها حتى أنفقها[1] .

وأخرج الواقدي عن عطاء بن يسار أنه قال : كان أسامة بن زيد قد أصابه الجدري ، أول ما قدم المدينة ، وهو غلام مخاطه يسيل على فيه ، فتقذرته عائشة ، فدخل رسول الله ﷺ ، فطفق يغسل وجهه ، ويُقبِّله ، فقالت عائشة : أما والله بعد هذا ، فلا أُقصيه أبداً .

ورواه أبــو يعلى ولفظه : قالت عائشة : أمرني رسول الله ﷺ أن أغسل وجه أسامة يوماً ، وهو صبي ، وما ولدتُ ، ولا أعرف كيف يغسل الصبيان ، قالت : فأخذته ، فغسلته غسلاً ليس بذاك ، فأخذه مني رسول الله ﷺ ، وجعل يغسل وجهه ، ويقول : لقد أحسن بنا إذ لم يك بجارية ، ولو كنت جارية ، لحلَّيتُك ، وأعطيتك[2] .

---

(١) ابن عساكر : ٣٩٥/٢ و ٣٩٦ ، منتخب كنز العمال : ١٣٥/٥ ، الطبقات الكبرى : ٦٢/٤ ، أسد الغابة : ٨٨/١ ، ورواه بنحوه أبو بكر البيهقي والإمام أحمد ، واورده الحافظ ابن حجر من سبعة طرق يقوي بعضها بعضاً .

(٢) ابن عساكر : المرجع والمكان السابق .

تاميره على الجيش :

ويحسم النبي ﷺ جدل الناس في صلاحية أسامة لقيادة الجيش الاسلامي إلى الشام مبيناً كفاءته وحبه له ، وتوسم النصر والخير لديه .

قال عبد الله بن عمر فيما يرويه مسلم : بعث رسول الله ﷺ بَعْثاً ، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد ، فطعن الناس في إمرته ، فقام رسول الله ﷺ فقال : إن تطعنوا في إمرته ، فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل ، وايْمُ الله ، إن كان لخليقاً للإمرة ، وإن كان لمن أحب الناس إلي ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بَعْدَه » .

وروى عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال ، وهو على المنبر : إن تطعنوا في إمارته ، يريد أسامة بن زيد ، فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله ، وايم الله ، إن كان لخليقاً لها ، وايم الله ، إن كان لأحبَّ الناس إلي ، وايْمُ الله ، إن هذا لها لخليق ، يريد أسامة بن زيد ، وايم الله ، إن كان لأحبَّهم إليَّ من بَعْدِه ، فأوصيكم به ، فإنه من صالحيكم »[1] .

---

(١) رواهما مسلم في صحيحه (شرح مسلم للنووي : ١٥/١٩٥-١٩٦) والرواية الاولى أخرجها أيضاً البخاري والترمذي (جامع الأصول : ٢٦/١٠) وانظر الطبقات الكبرى:٦٥/٤ ومابعدها منتخب كنز العمال : ١٣٥/٥ .

إردافه خلف النبي :

ويتقرر أمر حب النبي لأسامة في الحضر والسفر ، لأن الحب يستلزم ملازمة الحبيب ، فكان النبي ﷺ يردف وراءه أسامة مرات عديدة في أثناء السفر ، قال أسامة : إن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة ، وأردف وراءه أسامة وهو يعود سعد ابن عبادة قبل وقعة بدر . ودخل النبي مكة يوم الفتح ورديفه أسامة ، فأناخ في ظل الكعبة ، ودخلها مع بلال وأسامة . وأفاض النبي من عرفات وأسامة رديف النبي ﷺ [1] ، بل إن النبي ﷺ أخر الافاضة من عرفات بعض التأخير من أجل أسامة الذي ذهب يقضي حاجته[2] .

وروى أسامة في ذلك حديثاً يعتبر مناراً للمسافرين : « رويداً أيها الناس ، عليكم السكينة ، فإن البر ليس في الايضاع » أي في إسراع السير[3] .

---

(١) فتح الباري شرح البخاري : ٨١/٨ ، الطبقات الكبرى : ٦٤/٤ ، أسد الغابة : ٦٥/١ ، مسند احمد : ٢٠٧/٥ ، منتخب كنز العمال : ١٣٥/٥ .

(٢) حدّث بذلك عامر الشعبي ، كما حدث بالواقعة ابن عباس فقال : « جاءنا رسول الله ﷺ ، ورديفه أسامة بن زيد ، فسقيناه من هذا النبيذ (كالعصير اليوم) فشرب ، ثم قال : احسنتم فهكذا فاصنعوا » .

(٣) مسند أحمد : ٢٠٢/٥ .

فلما جاء غلام أفطس أسود ، قال أهل اليمن : ماحبسنا بالافاضة اليوم إلا من أجل هذا .

قال عروة : إنما كفرت اليمن بعد وفاة رسول الله من أجل أسامة .

قال يزيد بن هارون : يريد عروة : إن ردّة أهل اليمن التي ارتدوها زمن أبي بكر ، إنما كانت لاستخفافهم بأمر النبي ﷺ[1] .

تفضيل عمر له بالعطاء على ابنه :

وما إن انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، إلا وقد مَثَل في أذهان الصحابة ، واشتهر بين الناس وضوح أمر هذا الحب من النبي لأسامة ، كما يتجلى ذلك في مثل هذه القصة :

قال ابن عمر : فرض عمر لأسامة أكثر مما فرض لي ، فقلت: إنما هجرتي وهجرة أسامة (أي إلى المدينة) واحدة ؟ فقال : إن أباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك ، وإنه كان أحب إلى رسول الله منك ، وإنما هاجر بك أبواك ، فآثرت حِبّ رسول الله ﷺ على حِبّي[2] .

---

(١) تاريخ ابن عساكر : ٣٩٦/٢ ، الاستيعاب : ٧٥/١ ومابعدها ، الطبقات الكبرى : ٦٣/٤ وما بعدها .

(٢) رواه المحاملي والدراوردي والترمذي عن ابن عمر (تاريخ ابن عساكر : ٣٩٥/٢ ، جامع الأصول : ٢٧/١٠ وما بعدها ، الطبقات الكبرى : ٧٠/٤ ، منتخب كنز العمال : ١٣٥/٥) .

وقال ابن اسحاق : إن عمر فرض لابنه ثلاثة آلاف ، وفرض لأسامة ثلاثة آلاف وخمسمائة ؛ فقيل له في ذلك ؟ فقال : أأجعل حِبَّ رسول الله كحِبِّ نفسي ؟!

وفي رواية : أنه فرض لأسامة أربعة آلاف .

ثانياً ــ كسوته بردة النبي :

في يوم من الأيام خلع النبي ﷺ بردته الشريفة على كعب بن زهير بن أبي سُلمى ، الذي هو من أعرق الناس في الشعر في الجاهلية ، المتوفى سنة ٢٦ هـ ، وذلك لما أنشد النبي لاميته المشهورة التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول .

بعد أن جاء مستأمناً عقب إهدار النبي دمه ، ثم أسلم .

وتكرر هذا الحادث المعبِّر عن مدى الحب والتقدير لأسامة، في شبابه ، فخلع النبي عليه حُلَّة ثمينة رائعة . فقد أهدى حكيم بن حزام أحد سراة قريش للنبي ﷺ في أثناء الهدنة التي كانت بين رسول الله وبين قريش حُلَّة ثمينة كانت « لذي يَزَن » أحد ملوك اليمن ، اشتراها بخمسين ديناراً وقيل : بثلاثمائة دينار ذهباً ، فردها عليه رسول الله ، وقال : إني لا أقبل هدية مشرك (وكان حكيم يومئذ مشركاً) فاشتراها منه النبي بثمنها .

وقد لبسها النبي الكريم مرة واحدة في يوم جمعة ، ثم كساها أسامة بن زيد ، فكان يروح بها ويغدو بين شباب المهاجرين والأنصار .

وقد رآها عليه حكيم ، فقال : بخٍ بخٍ يا أسامة ، عليك حُلّة ذي يزن ، فقال رسول الله : قل له : وما يمنعني ، وأنا خير منه ، وأبي خير من أبيه [1] .

وتكرر إهداء النبي بعض الأثواب لأسامة بن زيد :

فقد روى أحمد في مسنده عن أسامة قال : كساني رسول الله ﷺ قُبْطِيَّة[2] كثيفة ، كانت مما أهداها دِحْية الكلبي ، فكسوتها امرأتي ، فقال لي رسول الله ﷺ : مالك لم تلبس القبطية ؟ قلت : يا رسول الله ، كسوتها امرأتي ، فقال لي رسول الله ﷺ : مُرْها فلتجعل تحتها غلالة [3] إني أخاف أن تصف حجم عظامها [4] .

---

(١) تاريخ ابن عساكر : ٣٩٦/٢ ، الطبقات الكبرى : ٦٥/٤ .

(٢) القُبْطِيّة : الثوب من ثياب مصر ، رقيقة بيضاء ، وكأنه منسوب إلى القِبْط ، وهم أهل مصر . وضم القاف من تغيير النسب ، وهذا في الثياب ، فأما في الناس فقِبطي بالكسر .

(٣) الغِلالة : ما يلبس تحت الثوب .

(٤) مسند أحمد : ٢٠٥/٥ ، الطبقات الكبرى : ٦٤/٤ ومابعدها .

ثالثاً ـ تزويج النبي له وعدد زوجاته وبعض اولاده :

كفاه فخراً ، وزاده شرفاً ، مـن زكّاه النبي ﷺ ورشحه للقيادة أم للزواج ، أو لغيرهما ، فتلك شهـادة سامية بالكفاءة والكياسة ، والأخلاق ، والسيرة الحميدة والسلوك الطيب .

فقد زوج النبي أسامة وهو ابن خمس عشرة سنة امرأة من طيء ، ففارقها ، فزوجه أخرى ، فولدت له في زمن رسول الله ، وأولم رسول الله على بنائه بأهله[1] .

وقد تزوج أسامة خمساً أو ستاً من النساء ، فارق بعضهن وأبقى بعضهن عنده .

قال محمد بن السائب الكلبي : تزوج أسامة بن زيد هند بنت الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، ودُرَّة بنت عدي بن قيس بن حُذَافة بن سعد بن سهم ، فولدت له محمداً وهنـد .

وتزوج أيضـاً فاطمة بنت قيس أخت الضحـاك بن قيس الفِهْري ، فولدت له جُبيراً وزيداً وعائشة .

وتزوج أم الحكم بنت عُتبة بن أبي وقاص وبنت أبي حمدان السَّهْمي .

---

(١) تاريخ ابن عساكر : ٣٩٦/٢ .

وتزوج بَرزة بنت ربْعيّ من بني عُذْرة ، ثم من بني رِزاح ، فولدت له حسناً وحسيناً[1] .

وقد روى المؤرخون بعض قصص زواجه وفراقه لبعض النسوة ، منها ما رواه محمد بن عمر ، قال : كان رسول الله ﷺ يحب أسامة بن زيد ، فلما بلغ وهو ابن أربع عشرة سنة[2] تزوج امرأة يقال لها : زينب بنت حنظلة بن قُسامة ، فطلقها أسامة فجعل رسول الله ﷺ يقول : من أدُلّه على الوضيئة الغَنين[3] ، وأنا صهره ؟

فجعل رسول الله ﷺ ، ينظر إلى نُعيم بن عبد الله النحَّام، فقال نُعيم : كأنك تريدني يا رسول الله ، قال : أجَلْ . فتزوجها، فولدت له إبراهيم بن نعيم ، فقتل إبراهيم يوم الحَرَّة[4] .

قال محمد بن عمر : لم يبلغ أولاد أسامة من الرجال والنساء أكثر من عشرين إنساناً[5] .

---

(١) الطبقات الكبرى : ٤/٧٢ .

(٢) لاحظنا أن رواية أخرى هي للواقدي ذكرت ذلك وهو ابن خمس عشرة سنة .

(٣) الغنين : المرأة القليلة الأكل .

(٤) الطبقات الكبرى : ٤/٧٢ . ويوم الحرّة : حدث في المدينة سنة ٦٣ هـ ، وهو يوم مؤلم قتل فيه كثير من أبناء الصحابة في معركة دارت بين عقبة بن مسلم وأهل المدينة .

(٥) الطبقات الكبرى : ٤/٧٢ .

ومن قصص زواجه الطريفة زواجه بفاطمة بنت قيس ، قالت: إن أبا عمرو بن حفص طلقها ألبتة ، وهو غائب بالشام ، فأرسل إليها وكيله بشعير ، فسخطته ، فقال : والله ، مالك علينا من شيء.

فجاءت رسول الله ﷺ ، فذكرت ذلك له ، فقال : ليس لك عليه نفقة ، فأمرها أن تقعد في بيت أم شريك ، ثم قال : إن تلك المرأة يغشاها أصحابي ، اعتدي عند ابن أم مكتوم ، فإنه رجل أعمى ، تضعين ثيابك . فإذا حللت أي من العدة ، فآذنيني .

قالت : فلما حللت ، ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني[1] ، فقال رسول الله ﷺ :

أما أبو جهم ، فلا يضع عصاه عن عاتقه .

وأما معاوية فصعلوك ، لامال له ، أنكحي أسامة بن زيد . قالت : فكرهته . ثم قال : أنكحي أسامة ، فنكحته ، فجعل الله فيه خيراً واغتبطت به .

---

(١) يظهر أن الخطبة الصريحة كانت بعد انتهاء العدة ، لأنه يحرم خطبة المعتدة بطريق التصريح باتفاق الفقهاء ، سواء أكان سبب وجوب العدة وفاة الزوج أو الطلاق ، رجعياً أم بائناً . اما خطبة المعتدة بطريق التعريض فتجوز في حال الوفاة ، وتحرم في حال الطلاق الرجعي ، وكذا البائن عند الحنفية ، وتحل عند غيرهم .

ورواه الإمام أحمد بلفظ : أما معاوية فترِبٌ[1] ، لا مال له ، وأما أبو الجهم فضرّاب للنساء[2] .

وفي رواية للواقدي أن النبي ﷺ قال : أنكحوا أسامة فإنه عربي صليب [3] .

هذه تزكية رائعة خالدة من رسول الله ﷺ لأسامة تشهد له بسمو خلقه ، ورفعة شأنه ، وعلو منزلته وقدره ، وتفضيله على أبناء بعض سادة قريش كمعاوية . وقد استدل الفقهاء كالمالكية بحديث فاطمة هذا على أن الكفاءة في النسب في الزواج لا تعتبر ، فلا يُفضَّل العربي على غيره ، لأن النبي ﷺ أشار على فاطمة بأن تتزوج بأسامة ، وفاطمة هذه قرشية ، وأسامة ليس قرشياً ، وإنما هو من الموالي ، مولى ابن مولى .

واستدل الحنابلة بحديث فاطمة هذا ، فلم يوجبوا للمعتدة من طلاق بائنٍ النفقةَ بأنواعها الثلاثة (الطعام والكسوة والسكنى) لأن فاطمة طلّقها زوجها ألبتة ، فلم يجعل لها رسول الله ﷺ نفقة ولا سكنى .

---

(1) الترب : الفقير .

(2) قيل : هذا كناية عن أنه كثير الضرب للنساء ، وقيل : هو كناية عن كثرة اسفاره ، لأن المسافر يحمل عصاه في سفره .

(3) تاريخ ابن عساكر : ٣٩٣/٢ ، ٣٩٦ . والصلب والصليب: الشديد .

رابعاً ـ كونه مستشار النبي :

قصة الإفك :

كان الرسول ﷺ إذا أراد السفر أقرع بين نسائه ، فأيّتهنّ خرج سهمها ، خرج بها معه . فلما كانت غزوة بني المُصْطَلِق أقرع بين نسائه ، كما كان يصنع ، فوقعت القرعة على عائشة . وفي أثناء عودة الرسول من سفره ، استراح بعض الليل قرب المدينة ، ثم أمر بالرحيل ، فتحرك الركب ، واقتاد القائد بعير عائشة وهم يظنون أنها جالسة في الهَوْدج ، لكنها كانت قد نزلت منه ، لقضاء حاجتها ، فسقط عِقْدها ، فتخلفت للبحث عنه ، ورجعت إلى مكانها الذي ذهبت إليه،فوجدته ، ثم عادت إلى محطة العسكر فوجدت الناس قد انطلقوا .

فاضطجعت في مكانها ، متلففة بجلبابها حتى لا يراها الناس، فمرّ بها صفوان بن المُعَطّل السُّلَمي الذي كان أيضاً قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته ، فوقف قريباً منها ، فعرفها لأنه كان يراها قبل فرض الحجاب على زوجات النبي ﷺ . فقال :

إنا لله ، وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله ﷺ !

ثم قال لها وهي متلففة في ثيابها : ما خلّفك ، يرحمك الله ؟ فما كلّمته . ثم قرب البعير ، فقال : اركبي ، واستأخر عنها . فركبت ، وأخذ برأس البعير ، يقوده سريعاً ، حتى أدرك الناسَ في الصباح .

فقال أهـل الإفك من المنافقين ماقالوا ، ولا تعلم شيئاً من ذلك • وأعرض الرسول ﷺ عنها ، بالرغم من اشتداد مرضها إلا أنه كان يعودهـا ، فيسأل أمهـا أم رُومَان ــ زينب بنت عبد دُهمان ــ كيف تيكم ؟ لا يزيد على ذلك •

ثم انتقلت إلى بيت أبيها ، مستأذنة النبي ، فأذن لها ، حتى شفيت من مرضها ، بعد بضع وعشرين ليلة • ثم علمت بقول أهل الإفك بزعامة زعيم المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول ، فبكت دموعاً غزاراً ، وقالت : فوالله ، مازلت أبكي ، حتى ظننت أن البكاء سيصْدَع (سيشق) كبدي •

ثم خطب الرسول ﷺ في الناس ، فقـال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس ، مابال رجال يؤذونني في أهلي ،ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل ، والله ما علمت منـه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي •

ثم نشب نزاع حاد بسبب ذلك بعد هذه الخطبة بين الخزرج (الذين كان أهل الإفك منهم) وبين الأوس [1]•

---

(١) انظر قصة اهل الإفك في سـيرة ابن هشام : ٢/٢٩٧ ــ ٣٠١ ، زاد المعاد : ٢/١٥٨ •

استشارة اسامة وعلي :

وكان أسامة ذا ذكاء حاد ، وفطنة بالغة ، وحكمة بعيدة ، وتفكير متزن هادىء ، وعقل ناضج مبكّر ، بوأه كل ذلك ليكون موضع ثقة النبي ﷺ ، وأحد مستشاريه .

فاستشاره النبي في هـذه القضية الخطيرة ، كما استشار عليّاً رضي الله عنه .

أما أسامة فأثنى على عائشة خيراً ، ثم قال : يا رسول الله ، أهلك ، ولا نعلم منهم إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل .

وأمـا علي فقال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية ، فإنها ستصدقك .

فدعا رسول الله ﷺ بُريرة ليسألها ، قالت : فقام إليها علي ابن أبي طالب ، فضربها ضرباً شديداً ، ويقول : اصدُقي رسول الله ﷺ ، قالت : فتقول : والله ما أعلم إلا خيراً ، وما كنت أَعيب على عائشة شيئاً ، إلا أني كنت أعجن عجيني ، فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتي الشاة فتأكله .

براءة عائشة بالوحي :

ثم نزل من السماء وحي متلو إلى يوم القيامة يعلن براءة عائشة من قول أهل الإفك ، فقال تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عُصْبة منكم ، لاتحسبوه شراً لكم ، بل هـو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كِبْره منهم له عذاب عظيم » .

قال ابن هشام : وذلك عبد الله بن أبي وأصحابه[1] . وهذا هو القول المشهور .

خامساً ـ شفاعته عند النبي في المخزومية :

كان أسامة بسبب حب النبي له وتكريمه إياه هو شفيع الأمة عند رسول الله ﷺ . قال جعفر بن محمد عن أبيه : كان أسامة يأتي النبي ﷺ في الشيء فيُشَفِّعُه فيه فأتاه مرة في حد ، فقال: يا أسامة لا تشفع في حد[2] .

والقصة : أن امرأة من قريش اسمها فاطمة من بني مخزوم سرقت ، والسرقة توجب قطع يد السارق ، فاهتم الناس بشأنها ، وبذلوا الوسائط لإعفائها .

فقد ثبت في السنة عن عائشة : أن قريشاً أهمهم المرأة المخزومية التي سرقت[3] ، فقالوا : من يُكلّم رسول الله ﷺ ، ومن يجترىء عليه إلا أسامة حِبّ[4] رسول الله ﷺ ؟! فكلّم رسول الله ﷺ ، فقال : « أتشفع في حد من حدود الله ؟! ثم قام فخطب ، فقال :

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢/٣٠١ ـ ٣٠٣ .

(٢) الطبقات الكبرى : ٤/٦٩ .

(٣) اسمها فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم . وعمها أبو سلمة .

(٤) الحب : بكسر الحاء : المحبوب .

يا أيها الناس، إنما ضلَّ من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايْمُ الله،لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لَقطعَ محمد يدها»[1].

وذلك دليل قاطع على تحريم الشفاعة في الحدود ، وترهيب فاعلها ، فقد وصفه النبي ﷺ بمضادة الله تعالى في أمره : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله ، فهو مضادّ الله في أمره »[2] كما أن ترك الحدود والمداهنة فيها ، وإسقاطها عن الأكابر من أسباب هلاك الأمم وتدميرها ، وأن إقامة الحدود من غير فرق بين الشريف والوضيع من أسباب حياة الأمم وسعادتها وتقدمها ورقيها.

وتلك هي مزية الاسلام الكبرى في تحقيق المساواة بين المسلمين في الحقوق والواجبات ، دون تمييز أحد أو فئة على غيرهم .

سادساً ـ إعلان مبدا المساواة في الاسلام احد حقوق الانسان:

كان أسامة حقلاً خصباً لتطبيق مبدأ المساواة في الاسلام في ميدان الحقوق والواجبات ، كما لاحظنا في بنود هذا الفصل

---

(١) متفق عليه ورواه الإمام أحمد ، وانظر : عمدة القاري : ٢٣٢/١٦ وما بعدها ، نيل الأوطار : ١٠٧/٧ ، ١٣٥ وما بعدها ، الطبقات الكبرى : ٦٩/٤ وما بعدها ، تاريخ ابن عساكر : ٣٩٣/٢ .

(٢) رواه أحمد وأبو داود عن ابن عمر (نيل الأوطار: ١٠٧/٧).

السابقة ، سواء في تسويته بالحسن بن علي ، أو في محبة النبي له كمحبته أبيه ، أو في إماطة الدم والأذى عن جبهته ، أو في كسوته بردته ، أو تزويجه امرأة قرشية كتزويج أبيه زيد بامرأة حرة هي زينب بنت جحش ، أو في منعه من الشفاعة في حد من حدود الله تعالى المفروضة شرعاً لصون الدماء والأموال والأعراض والعقول ، أو مبدأ الدين كله •

ويلاحظ أن الاسلام أعلن من الناحيتين النظرية والفعلية مبدأ المساواة في الاسلام ، مما لم يكن يألفه العرب ، ولا يريدونه ، بل إن بعضهم أنف من اعتناق الاسلام خشية إلزامه بالمساواة الفعلية مع غيره •

والاسلام كشأنه في كل ماشرع يلتزم الحكمة والتعقل ، ومراعاة الواقع بقدر الامكان فيما لايصادم أصل المبدأ ، وغاية التشريع أو المساس بعموم الحكم الشرعي •

فالمساواة بين الناس ليست كما يتحدث عنها أصحاب الأهواء أو النظريات شرقاً أو غرباً ، فليس هناك مساواة مطلقة ، ولا مساواة ضيقة ، وإنما المساواة في ظل الاسلام لها معنى يتغلغل في النفوس البشرية والقيم الانسانية •

فقد سوى الاسلام بين الناس مساواة مطلقة في الانسانية ، قال الله تعالى : « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

وأعلن القرآن وحدة المنشأ والأصل الانساني : « يا أيها الناس ، اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » فلا امتياز لشعب على آخر ، ولا تفاضل بين الناس في الأنساب والأصول والدماء والألوان والأحساب . وأكد النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه هذا المعنى في حجة الوداع ، إذ قال : « أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم... أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » .

وأما فيما عدا ذلك ، فإن المساواة مقيدة في الاسلام بإطار من العدل ، وسياج من العاطفة والرحمة بين الناس ، فلا يستوي العالم والجاهل ، والمؤمن وغير المؤمن ، والتقي والفاسق أو البر والفاجر ، أو المنتج والعاطل ، والمجاهد والقاعد ، أي أن هناك تفاوتاً في المواهب والصفات ، والانتاج والعطاء ، والعمل والبناء وصالح الأعمال : « قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون » « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » « لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ، والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ... » .

وينبغي أن تتحقق المساواة المطلقة في أمور ثلاثة :

١ً ــ المساواة في القيم الانسانية المشتركة :

فلا تفاضل في الأجناس ، فالجنس الآري والحامي والسامي كلها سواء ، ولا تمييز في الألوان ، فالأبيض والأسود والأحمر والأصفر على حد سواء ، ولا تفاضل في الأنساب والأحساب ، فالعاملة الشريفة ، والاخرى الوضيعة لهما حقوق متساوية .

٢ً ــ المساواة أمام القانون :

الناس جميعاً متساوون في الحدود والعقوبات ، وفي تكافؤ الفرص . وقد رأينا حرمة الشفاعة في الحدود في قصة أسامة الذي زجره النبي عن الكلام في حد السرقة .

ويستتبع هذا الحق المساواة أمام القضاء في الدعوى والاثبات والأحكام القضائية العادلة : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم » « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

ومن مظاهر هذا المبدأ المساواة في التوظف دون تمييز بسبب القوم أو اللون أو المنصب أو الشهرة أو السن ، أو القرابة أو الغنى . وقد أمَّر النبي ﷺ على الجيش الاسلامي بعض الموالي مثل زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ، وابنه أسامة في بَعْثٍ هاجم الامبراطورية الرومانية في بلاد الشام ، وكانت بعض الولايات الاسلامية يحكمها بعض الموالي أحياناً . ولا يصح أن يحرم إنسان من ممارسة الحقوق السياسية والوصول إلى أرقى المناصب في دولة الاسلام .

وهذا كله كفيل بإرساء صرح العدل بين الناس ، ومنع الظلم ، ودفن كل ألوان الحقد والكيد والضغينة ، وإشاعة الرضى والطمأنينة على الحقوق ، وإحساس الضعيف بكرامته وعزة نفسه أمام القوي •

٣ً ــ المساواة في النواحي الاقتصادية :

فلا يصح أن ينخفض أجر امرىء لأنه أسود مثلاً ، ويعطى آخر أجراً أعلى لكونه أبيض أو من عائلة رفيعة أو أسرة عريقة،إذا تساووا في العمل ، فالناس جميعاً متساوون في الأجور وثمرات الأعمال ، والتفاوت إنما هو بينهم على قدر أعمالهم ، فالرجل وعطاؤه ، والرجل وجهاده ، والرجل وتناجه •

كذلك الناس متساوون في التكاليف والمشاركة في تحمل أعباء الجهاد والمعارك ، دون استثناء أحد إلا بعذر •

وعندها لايبقى مجال في النظرية الاسلامية والتطبيق لما يسمى بالتفرقةالعنصرية سياسياً واجتماعياً واقتصادياً،بالرغم مما نشاهده اليوم من هذه التفرقة في مخطط أرقى دول العالم الغربي حضارة•



الفصل الثالث

أوصافه الجسدية وفضائله الإنسانية

إن أسامة بن زيد كان مثلاً عالياً للفضائل الإنسانية والصفات العالية . فهذا هو الجوهر والمقياس ، سواء أكان بلون أبيض أو أسود ، قال النبي ﷺ : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[1] .

اولاً ـ وصفه الجسدي وصفاته الفطرية :

كان أسامة كأمه الحبشية أفطس الأنف أسود ، على عكس أبيه زيد الذي كان أبيض أشقر ، قال ابراهيم بن سعد : كان زيد أحمر أبيض أشقر ، وكان أسامة بن زيد مثل الليل [2] .

وكان كسيدنا علي بطيناً ، فكان يقال له : ذو البطن أسامة ابن زيد ، قال يزيد بن الأصم : كان لميمونة قريب ، فرأته وقد

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٢) طبقات ابن سعد : ٦٣/٤ ، تاريخ ابن عساكر : ٣٩٣/٢ ، أسد الغابة : ٦٦/١ ، الاستيعاب : ٧٦/١ ، مسند أحمد : ٢٠٢/٥ .

أرخى إزارة بطنه ، فلامَتْه في ذلك مَلامة شديدة ، فقال لها : إني قد رأيت أسامة بن زيد يُرْخي إزاره ، قالت : كذبت ، ولكن كان ذا بطن ، فلعل إزاره كان يسترخي إلى أسفل بطنه (١) .

وكان أسامة حاد الذكاء ، فطناً حكيماً يضع الأمور في مواضعها الصحيحة ، شجاعاً بطلاً مغواراً ، عفيف اللسان ، مترفعاً عن الدنايا ، يألف ويؤلف ويحبه الناس ، عالي الهمة ، متفانياً في القيام بالواجب ، ذا عقل كبير وفكر ناضج مبكر ، بدليل استشارة النبي له في أمور كثيرة ، من أهمها قصة الإفك .

* * *

ثانياً ــ فضائله وأخلاقه :

تميز أسامة بفضائل جمعت بين خيري الدنيا والآخرة ، فهو عَفُّ اللسان ، جريء في الحق ، سابق إلى الإسلام والخيرات ، تقي ورع زاهد .

آ ــ عفة لسانه ، موقفه مع مروان :

كان أسامة يؤثر الصمت في مواطن الفحش والسوء ، ويدفع من يسيء إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والكلمة الطيبة ، وتبرهن الأحداث والمواقف المحرجة على ذلك ، منها موقفه التالي مع مروان بن الحكم (٢) :

---

(١) الطبقات الكبرى : ٤/٧١ .

(٢) الاستيعاب : ١/٧٦ ، أسد الغابة : ١/٦٦ .

حدث مرة أن أسامة بن زيد وقف يصلي عند قبر النبي ﷺ فدُعِي مروان بن الحكم إلى جنازة ليصلي عليها ، فصلّى عليها، ثم رجع ، وأسامة يصلي عند باب بيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقال له مروان : إنما أردتَ أن يُرى مكانُك ، فقد رأينا مكانَك ، فعل الله بك وفعل ــ قولاً قبيحاً ــ ثم أدبر ، فانصرف أسامة وقال :

يامروان ، إنك آذيتني ، وإنك فاحش متفحش ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن الله يبغض الفاحش المتفحش .

ب ــ جرأته في الحق ، موقفه مع معاوية :

أسامة كشأن كل الصحابة كان قوي الإيمان جريئاً في الحق، لا يداري ولا يماري ، ولا يسكت على ضيم ، ولا يقبل الذل والعار ، ويأنف من الصغار ، ويحافظ على أسمى درجات العزة والكرامة الشخصية . من ذلك موقفه الآتي مع معاوية (١) :

قدم أسامة على معاوية بالشام ، فأجلسه معه وألطفه ، فمدّ أسامة رجله ، فقال معاوية : يرحم الله أم أيمن ، كأني أنظر إلى

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٨ .

ظنبوب [1] ساقها بمكة ، كأنه ظنبوب نعامة خَرْجاء [2] ، فقال أسامة : فعل الله بك يا معاوية ، هي والله خير منك ، قال معاوية : اللهم غفراً .

ج ـ سبقه إلى الإسلام :

أسامة من السابقين الأولين إلى الإسلام عقيدة وهجرة ، كأبيه زيد الذي كان أول الناس إسلاماً ، وهذا دليل واضح على سلامة الفطرة ، وإصابة التفكير ، ورجاحة العقل .

قال بعض أهل العلم : إن أباه زيداً كان أول الناس إسلاماً ، وولد له أسامة بمكة ، ونشأ حتى أدرك ، لم يعرف إلا الإسلام لله ، ولم يدن بغيره ، وهاجر مع أبيه ، وكان رسول الله ﷺ يحبه حباً شديداً ، وكان عنده كبعض أهله [3] .

أي أنه في المنزلة كبعض آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام .

د ـ تقواه وزهده وورعه :

كان أسامة في التقوى والطاعة والعبادة والزهد ، مثلاً يقتدى به ، عرف طريق الجنة بالعبادة فسلكه ، وأحس بعظم

---

(١) الظنبوب : العظم الظاهر وهو الساق ، أو حرف عظم الساق من الأمام .

(٢) الخرجاء : التي فيها بياض وسواد .

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٢ .

ثواب الصوم والتهجد في الليل فصام ، وهجر لذة المنام ، فصلى في جوف الليل وقام ، كما أحس بأن نعيم الحياة موقوت ، ونعيم الآخرة دائم خالد ، فعزف عن الأول ، وعكف على الثاني ، وعلم أن الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال وفناء فلم يأبه بزخارف اللباس والزينة ، ولمس هيبة الله وجلاله ، فخاف عذابه وخشي عقابه ، وأدرك مزايا الصالحين ، فالتزم طريقهم ، وأيقن أن باب الجنان والرضوان هو الجهاد في سبيل الله ، فجاهد وقاتل ، وقاد جيش الإسلام ، كما سنوضح . وهذه أمثلة من تقواه :

روى أحمد في مسنده عن مولى أسامة أن أسامة بن زيد كان يخرج في مال له بوادي القرى ، فيصوم الاثنين والخميس ، فقلت له : لم تصوم في السفر ، وقد كَبِرْتَ ورَقَقْتَ[1] ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ كان يصوم الاثنين والخميس . فقلت : يارسول الله ، لم تصوم الاثنين والخميس ؟ قال : إن الأعمال تُعرضُ يوم الاثنين والخميس[2] . وأسنده الحافظ ابن حجر من أربعة طرق .

وروى أبو يعلى أن أسامة قال : كنت أصوم شهراً من السنة،

---

(١) في رواية : ورفعتَ .

(٢) مسند أحمد : ٥/٢٠٥ ، الطبقات الكبرى : ٤/٧١ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٨ .

فذكرته للنبي ﷺ ، فقال : أين أنت عن شوال ؟ فكان أسامة اذا أفطر أصبح الغد صائماً من شوال ، حتى يتم على آخره [1] .

وقال أبو سعيد الخدري [2] : اشترى أسامة وليدة (جارية) بمائة دينار إلى شهر ، قال : فسمعت رسول الله يقول : ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل ، والذي نفسي بيده ، ما طَرَفَتْ عيناي إلا ظننت أن شُفْري [3] لا يلتقيان، حتى يقبض الله روحي ، ولا رفعتُ طرفي ، فظننت أني واضعه حتى أقبض ، ولا لَقِمتُ لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها ، حتى يَغصّ بها الموت .

ثم قال : يا بني آدم ، إن كنتم تعقلون ، فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده ، إنما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين .

لا شك أن أسامة تمثل هذا القول النبوي فأثر في نفسه أيما تأثير ، فكان زاهداً في الدنيا ، مقبلاً على الآخرة .

هـ ـ التزامه الدقيق بحكم الشريعة :

غلط أسامة مرة في أول تجربة حربية في قتال العدو ، فقتل ـ في غمرة إظهار شجاعته ، وتأثراً بغصبية العربي ـ محارباً

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٨ .

(٢) المرجع السابق : ٢/٣٩٦ .

(٣) الشفر واحد أشفار العين ، وهي حروف الأجفان .

حاول اتقاء القتل بإعلان كلمة التوحيد ، فقال : لا إله إلا الله ، فاعتبر أسامة ذلك خداعاً ، وخوفاً لا صدقاً ولا اعتقاداً ، فلامه النبي ﷺ لوماً شديداً أثر في مجرى حياته ، فاعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ، خشية أن يتورط مرة أخرى في قتل مسلم نهى رسول الله ﷺ عن قتله .

روى أحمد[1] عن أسامة بن زيد ، قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقَات [2] ، فنذروا بنا ، فهربوا ، فأدركنا رجلاً ، فلماه غشيناه ، قال : لا إله إلا الله ، فضربناه حتى قتلناه ، فعرَض في نفسي من ذلك شيء ، فذكرته لرسول الله ﷺ ، فقال : من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟! قال : قلت : يارسول الله ، إنما قالها مخافة السلاح والقتل ؟ فقال : ألا شققت عن قلبه ، حتى تعلم من أجل ذلك أم لا ، من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ قال : فما زال يقول ذلك حتى وددت أني لم أسلم إلا يومئذ .

ولهذه القصة روايات أخرى فيها بعض الزوائد والفوائد :
حدث الحضرميّ ــ رجل من أهل اليمامة ــ قال : بلغني أن رسول الله ﷺ ، بعث أسامة بن زيد ، وكان يحبّه ويحب أباه قبله ، بعثه على جيش ، وكان ذلك من أول ما جُرِّب أسامة في قتال ، فلقي ،

---

(١) مسند أحمد : ٥/٢٠٠ ، ٢٠٧ .

(٢) الحرقات ، من جهينة .

ففاتل ، فذُكر منه بأس • قال أسامة : فأتيتُ النبيﷺ ، وقد أتاه البشير بالفتح ، فإذا هو متهلل" وجهه ، فأدناني منه ثم قال : حَدِّثْني •

فجعلت أحدِّثه ، فقلت : فلما انهزم القوم ، أدركت رجلاً ، وأهوَيْتُ إليه بالرمح ، فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته ، فقتلته ، فتغير وجه رسول الله ﷺ ، وقال : ويحك يا أسامة ، فكيف لك بلا إله إلا الله ؟ ويحك يا أسامة ، فكيف لك بلا إله إلا الله ؟ فلم يزل يردِّدُها علي ، حتى لوددت أني انسلخت من كل عمل عملته، واستقبلت الإسلام يومئذ جديداً ، فلا والله لاأقاتل أحداً قال لا إله إلا الله ، بعدما سمعت رسول الله ﷺ (١) •

وعن إبراهيم التَّيْمي عن أبيه قال : قال ذو البطن أسامة بن زيد : لا أقاتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله أبداً ، فقال سعد بن مالك : وأنا والله ، لا أقاتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله أبداً ، فقال لهما رجل : ألم يقل الله : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ؟ فقالا : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة ، وكان الدين لله (٢) •

---

(١) الطبقات الكبرى : ٤/٦٩ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٤ وما بعدها .

(٢) الطبقات الكبرى ، المرجع والمكان السابق ، وانظر اسد الغابة : ١/٦٥ .

الطريف في هذه الحادثة أنها أعلمت قادة الحروب بمبدأ ثابت دائم ألا وهو حرمة إراقة الدماء بغير حق ، وأن الخطأ الذي ارتكبه أسامة لن يتكرر ، فقد تاب توبة خالصة ، وندم ندماً شديداً حزّ في نفسه طوال عمره ، مما يدل على صدق أسامة في إطاعة أحكام الله وتفانيه الكامل في تنفيذ حكم شرع الله تعالى.

بره بأمه :

إن النفوس العالية العاقلة الطيبة هي التي تدرك ماللأبوين من فضل عظيم ، وحرمة كبرى ، فتسارع إلى طريق الجنة : وهو بر الأبوين ، وذلك أمر يسير ، بل هو معاملة بالمثل فكما يعامل المرء أبويه يعامله أبناؤه ، لأن « البر لا يبلى ، والذنب لاينسى ، والديّان لا يموت ، اعمل ماشئت كما تدين تدان » ، وقال النبي ﷺ : « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم ، وعفوا تعف نساؤكم »(١) « بر الوالدين يزيد في العمر »(٢) « بر الوالدين يجزىء عن الجهاد »(٣).

وقد ضرب لنا أسامة المثل الأعلى في بر أمه ، ومعاملته الطيبة لها . قال محمد بن سيرين : بلغت النخلة على عهد عثمان ألف

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر .

(٢) رواه ابن عدي في الكامل عن أبي هريرة ، لكنه ضعيف .

(٣) رواه ابن أبي شيبة عن الحسن مرسلاً ، وهو حديث حسن.

درهم ، فعمد أسامة إلى نخلة ، فنقرها ، وأخرج جُمَّارها[1] ، فأطعمها أمه ، فقالوا له : ما يحملك على هذا ، وأنت ترى النخلة قد بلغت ألف درهم ؟ فقال : إن أمي سألتني ، ولاتسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتها[2] .

* * *

(١) الجمارة : هي الجزء الأبيض الغض من قلب النخلة ، أو ما يحيط بالبرعمة الرئيسية الكبيرة . وهي حلوة المذاق تخلو من الألياف . وقد يبلغ وزن بعضها كيلو غرام أو أكثر حسب حجم رأس النخلة . وهي تؤكل مباشرة أو يصنع منها مأكولات مثل الحميس ومخلل الجمار وحلاوة الجمار .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/ ٣٩٨ ، الطبقات الكبرى : ٧١/٤ .

الفصل الرابع

جهاد الفتى القائد

كان من أنضج ثمار تربية أسامة في بيت النبوة إعداده الحربي وتوثبه للجهاد في سبيل الله ، وتطلعه للقاء العدو صغيراً وكبيراً دون مهابة ، وفكره الثاقب في التخطيط للنصر الحربي المؤزر ، وإحراز أفضل المكاسب بأقل جهد ممكن ، وادخار الطاقات المعنوية والمادية لما ينتظر من ردود الفعل المعاكس من العدو الماكر ، الذي لا يعرف غير القسوة والعنف أو الوحشية والهمجية سبيلاً ، كما لا يستهدف من حروبه غير الغنيمة المادية ، أو قهر المسلمين الذين ينادون باحترام القيم الإنسانية ، أو إعلاء كلمة الله تعالى ، ونشر مبدأ التوحيد الإلهي وما يستتبع من فضائل وغايات سامية : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

فكان أسامة مثلاً أعلى للشجاعة النادرة ، والإقدام والجرأة ، والإخلاص في سبيل مبدأ الإسلام ، سواء أكان جندياً عادياً أم قائداً فتى مظفراً ، وهو دون العشرين من العمر . وبطولة أسامة في

حداثة سنه لها أمثلة نادرة طريفة في عصر الصحابة وما بعده من تاريخ الإسلام . منها أن غلامين قتلا رأس الكفر وعدو الله أبا جهل في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة، وهما مُعاذ بن عمرو بن الجموح ، ومُعوذ بن عفراء . ثم أجهز عليه في آخر رمقة في آخر هو عبد الله بن مسعود الذي وضع رجله على عنقه، فقال له أبو جهل: لقد ارتقيت مُرْتقى صعباً يارويعي الغنم ؟ ثم جزّ رأسه ، وجاء به رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله ، هذا رأس عدو الله أبي جهل . فاستخفه ــ أي النبي ــ الفرح ، ثم قال النبي حين رأى جثة أبي جهل : الحمد لله الذي أخْزَاكَ، هذا فرعون هذه الأمة[1].

كما تَذكّرنا بطولة أسامة القائد الفتى : بفاتح السند [2] وهو ابن سبع عشرة سنة وهو محمد بن القاسم الثقفي (٦٢ ــ نحو ٩٨ هـ) في العصر المرواني الأموي [3] .

وأستعرض فيما يأتي أبرز مواقف جهاد أسامة :

اولاً ــ في معركة أحد سنة ٣ هـ :

جاء أسامة وهو في سن الرابعة عشرة إلى النبي ﷺ يوم أحد ، مع نفر من فتيان الصحب الكرام ، فأجاز النبي من كان في

(١) الاستيعاب : ٣/٩٩٠ وما بعدها ، سيرة ابن هشام : ١/٦٣٥ وما بعدها .

(٢) السند : بلاد بين الهند وكرمان وسجستان .

(٣) جوامع السيرة : ص ٣٤٩ .

سن الخامسة عشرة يومئذ وهما سَمُرة بن جُندب الفَزاري ، ورافع بن خديج من بني حارثة ، لأن رافعاً رامٍ يحسن الرمي بالسهام ، ولأن سمرة يَصْرَع رافعاً ، لقدرته الجسدية .

ورد رسول الله ﷺ أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، وعَمْرو بن حزم ـ وهما من بني مالك ابن النجار ـ والبراء بن عازب ، وأسَيْد بن ظُهَيْر ـ وهما من بني حارثة ـ وعَرَابة بن أوس ، وزيد بن أرقم ، وأبا سعيد الخدري [1] .

فتألم أسامة، ورجع وعيناه تدمعان ألاّ يجاهد من رسول الله ﷺ . وقد استثنى الشرع من الجهاد في غزوة تبوك الضعفاء والمرضى ، كما أنه لم يكلف أحداً بالتكاليف الشرعية إذا كان دون سن البلوغ . والقرآن نزل بالاستثناء في سورة التوبة : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت : لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَناً ألاّ يجدوا ما ينفقون » .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٦٦/٢ ، جوامع السيرة لابن حزم : ص ١٥٩ .

ثانياً ـ في غزوة الخندق سنة ٥ هـ :

في هذه الغزوة تكررت محاولة أسامة مع نفر من الصحابة للمشاركة في الجهاد ، وجعل يرفع قامته ليجيزه رسول الله ، فرَقَّ له النبي ﷺ ، وأجازه بعد أن بلغ خمس عشرة سنة .

ومن هنا استنبط الفقهاء أن سن التكليف بالتكاليف الشرعية هو تمام الخامس عشرة سنة .

ومن ثَمَّ حمل أسامة راية الجهاد في سبيل الله ، وشارك في سائر الغزوات مع النبي ﷺ إلا في غزوة مؤتة ، ففي إمرة أبيه زيد .

ثالثاً ـ في غزوة مؤتة سنة ٨ هـ (في جمادى الأولى) :

اشترك أسامة في هذه الغزوة ضد الروم في قرية بالشام في مَعَان من أرض البلقاء ، يقال لها مؤْتَةَ ، بقيادة أبيه زيد ، وكان سنه ثماني عشرة سنة . في جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، ضد جيش هرقل في مائة ألف من الروم . فتقاتل الجيشان قتالاً عنيفاً ، حتى سقط قادة عظام ثلاث : وهم زيد بن حارثة ، وجعفر ابن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، ثم أخذ الراية سيف الله خالد بن الوليد ، باختيار المسلمين ، فأحدث تغييراً في أجنحة الجيش وقلبه ومؤخرته ، فقال النبي ـ وهو في المدينة حينئذ ـ : الآن حمي الوطيس .

فأوهم خالد بهذا التغيير الروم بمجيء مدد من المدينة ، ففزع العدو ، وأحجموا عن المهاجمة ، وسرهم أن المسلمين لم يبتدروهم بالقتال ، فانحاز خالد بالمسلمين ، وجعل ينسحب بالجيش تدريجياً حتى بلغ به المدينة [1] .

عن قيس بن أبي حازم أن النبي ﷺ حين بلغه أن الراية صارت إلى خالد بن الوليد ، قال : فهلاَّ إلى رجل قتل أبوه ، يعني أسامة بن زيد [2] .

وتابع أسامة القتال بعد استشهاد أبيه مع القادة الثلاثة ، وعاد إلى المدينة تاركاً جسده الطاهر على حدود الشام ، موارىً في قبور الشهداء في قرية المزار قرب مؤتة ، راكباً جواده الذي استُشْهد عليه . عطر الله ثراه مع هؤلاء الشهداء ، فهم الذين ضَحَّوْا في سبيل الله والدين والأمة ، وأعطوا الدرس الواضح للأبناء والأجيال ، وأسامة الابن البار سائر على الدَّرْب : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ،وما بدَّلوا تبديلاً » .

---

(١) راجع جوامع السيرة : ص ٢٢٠ وما بعدها ، سيرة ابن هشام : ٣٧٣/٢ وما بعدها .

(٢) الطبقات الكبرى : ٦٢/٤ .

رابعاً ـ يوم حنين سنة ٨ هـ (في شوال) :

خرج الرسول ﷺ بعد فتح مكة سنة ثمان من الهجرة في اثني عشر ألف مقاتل ، للقاء هوازن وثقيف بزعامة مالك بن عوف النَّصْري ، الذين جاؤوا يريدون القضاء على المسلمين ، فالتقى الجيشان في وادي حُنَيْن بين مكة والطائف ، على بُعْد ثلاث ليال من مكة . وأُعجب المسلمون بكثرتهم حتى قال قائلهم : لن نغلب اليوم من قلة .

وحين انهزم المسلمون ، ثبت مع رسول الله أسامة بن زيد مع العباس عم الرسول ، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه ، وستةٍ آخرين هم أبو بكر وعمر ، وعلي والفضل بن العباس ، وجعفر بن أبي سفيان ، وقُثَم بن العباس ، وجماعة من غيرهم[1] .

وبهذا الثبات والدفاع المستميت تحقق النصر المؤزر للمسلمين ، وغنموا مغانم كثيرة ، بعد أن قتل سبعون من ثقيف وحدها ، كما قتل دريد بن الصِّمة سيد بني جُشَم من هوازن ، واستُشهد عدد من المسلمين ، فرحمهم الله تعالى ، ورضي عمن بقي على قيد الحياة كأسامة ، لمعارك أخرى ، وحروب شنها الأعداء على المسلمين .

---

(١) جوامع السيرة : ص ٢٣٦ وما بعدها . سيرة ابن هشام : ٤٣٧/٢ وما بعدها .

خامساً ـ بَعْث أسامة سنة ١١ هـ لأخذ الثأر وقتال الروم :

تابع الروم اعتداءاتهم على المسلمين وحدود الاسلام بعد غزوة مؤتة .

فبعد حجة الوداع التي حجها النبي ﷺ في مائة ألف أو يزيدون في السنة العاشرة ، وبعد المحرم وصفر من السنة الحادية عشرة ، جهز عليه السلام جيشاً إلى الشام ، وجعل قائده أسامة ابن زيد ، وكان قد رشحه للقيادة ، كما لاحظنا في موقعة مؤتة ، بعد أن علم النبي بقيادة خالد . وكان عمره دون العشرين ، قيل : وهو ابن ١٩ سنة ، وقيل : وهو ابن ١٨ سنة[١] .

وكفاءة أسامة لهذه القيادة أمر مقرر ثابت في تقدير النبي ﷺ . روى ابن أبي شيبة عن جَبَلَة : أنه كان رسول الله ﷺ إذا لم يغز ، أعطى سلاحه علياً أو أسامة[٢] .

وقال عبد الله بن عمر : بعث رسول الله ﷺ بَعْثاً ، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد ، فطعن بعض الناس في إمارته ، فقال رسول الله ﷺ : إن تطعنوا في إمارته ، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبلُ ، وايْمُ الله ، إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لَمِنْ أحب الناس إليَّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده[٣] .

---

(١) تهذيب التهذيب : ٢٠٨/١ .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٦/٢ .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي راجع الطبقات الكبرى : ٦٥/٤ ، جامع الأصول : ٢٦/١٠ .

كان في إمرة أسامة المهاجرون الأولون وجل الأنصار ، في جيش عدده ثلاثة آلاف ، وفيهم ألف فرس ، ومنهم عمر ، وسعد ابن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وغيرهم من كبار الصحابة [1] .

وأمره النبي أن يوطىء الخيل تخوم « البلقاء » وقلعة « الدّروم » القريبة من غزة من أرض فلسطين ، وأن يشن الغارة على مؤتة وأبنى وآبل الزيت ، من مشارف الشام في أرض الأردن [2] .

وروى الامام أحمد عن أسامة بن زيد ، قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى قرية يقال لها : أُبْنى[3] ، فقال : ائتها صباحاً ، ثم حرِّق .

---

(١) الطبقات الكبرى : ٦٨/٤ ، الإصابة : ٢٩/١ . أسد الغابة: ٦٦/١ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١٢٠/١ ، ١٢٣ ، ٣٩٢/٢ ، البداية والنهاية : ٣٠٥/٦ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٦٠٦/٢ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١١٥/١ وما بعدها ، الطبقات الكبرى : ٦٧/٤ ، تاريخ الطبري : ١٨٨/٣ ، حياة الصحابة : ٦٢٨/١ .

(٣) أبنى بوزن حبلى : اسم موضع من فلسطين بين عَسقلان والرملة ويقال لها أيضاً : يبنى ، بالياء .

وكان خروج أسامة إلى أهل أبنى ــ وهي أرض السراة من ناحية البلقاء ــ يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة ١١هـ[١].

وروى الزهري عن أسامة : أن رسول الله ﷺ بعثه إلى الشام ، وأمره أن يغير على « أبنى » صباحاً ، ثم يحرّق .

ورواه الإمام أحمد بلفظ أتم وهو : أن النبي ﷺ كان وجّه أسامة ، فقبض عليه الصلاة والسلام ، فسأله أبو بكر رضي الله عنه : ما الذي عهد إليك ؟ فقال : عهد إلي أن أغير على أُبْنى صباحاً ، ثم أحرّق[٢] .

وقال النبي ﷺ بعد أن عقد لأسامة لواءً بيده[٣] : اغز بسم الله ، في سبيل الله ، من كفر بالله ، فقاتل من كفر بالله ، اغزوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً ، ولا امرأة ، ولا تمنوا لقاء العدو ، فإنكم لاتدرون لعلكم تبتلون بهم ، ولكن قولوا : اللهم

---

(١) الطبقات الكبرى : ٢/١٩٠ .

(٢) ورواه أبو يعلى الموصلي ، وزاد : ولم يتوجه أسامة حتى قبض النبي ﷺ . ورواه أبو نعيم ، والبيهقي . وهو حديث غريب (تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١/١١٦ ، مسند أحمد : ٥/٢٠٥ ، ٢٠٩ ، الطبقات الكبرى : ٤/٦٦) .

(٣) الطبقات الكبرى : ٢/١٩٠ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١/١٢٠ .

اكفناهم واكفف بأسهم عنا ، فإن لقيتموهم قد أجلبوا [١] ، وصبحوا ، فعليكم بالسكينة والصمت ، ولا تتنازعوا فتفشلوا ، وتذهب ريحكم ، وقولوا : اللهم نحن عبادك ، وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تغلبهم أنت ، واعلموا أن الجنة تحت البارقة [٢] .

ولما أصبح رسول الله ﷺ من الغد يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر ، دعا أسامة بن زيد ، فقال : يا أسامة ، سر على اسم الله وبركته ، حتى تنتهي إلى مقتل أبيك ، فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فاغز صباحاً على أهل أبنى ، وحرق عليهم ، وأسرع السير بسبق الخبر ، فإن أظفرك الله ، فأقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء ، وقدم العيون أمامك والطلائع [٣] .

نقد المنافقين إمرة أسامة :

اشتد انتقاد المنافقين قيادة أسامة وأكثروا في تأميره ، حتى بلغ الخبر النبي ﷺ ، فخرج عاصباً رأسه من الصداع ، واهتم لذلك الأمر ، ولبشارة أريها في بيت عائشة ، وقال : إني أريت البارحة فيما يرى النائم في عضدي سوارين من ذهب ، فكرهتهما

---

(١) أي تجمعوا .

(٢) أي السيوف .

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١/١١٩ وما بعدها .

فنفختهما فطارا ، فأوّلتهما هذين الكذابين : صاحب اليمامة ، وصاحب اليمن ـ أي أن هذا إخبار عن هزيمة من ادعى النبوة ، وهو مسيلمة الكذاب باليمامة ، والأسود العَنْسي باليمن[1] ـ .

وقد بلغني أن أقواماً يقولون في إمرة أسامة ، ولعمري لئن قالوا في إمارته ، لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله ، ولئن كان أبوه لخليقاً لها ، وإنه لها لخليق ، فأنفذوا بعث أسامة .

وقال : لعن الله الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد[2] .

معسكر الجيش :

خرج أسامة ، فضرب بالجُرْف[3] ، وجعل الناس يأخذون بالخروج (أي بالالتحاق بالجيش)، فيخرج من فرغ من حاجته إلى معسكره ، ومن لم يقض حاجته ، فهو على فراغ ، ولم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلا انتدب في تلك الغزوة .

فقال رجال من المهاجرين ـ وكان أشدهم في ذلك قولاً عيّاش بن أبي ربيعة رضي الله عنه ـ : يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ؟!

فكثرت القالة في ذلك .

---

(١) تاريخ الطبري : ١٨٨/٣ .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١١٦/١ ، تاريخ الطبري : ١٨٨/٣ .

(٣) اسم موضع قرب المدينة .

فسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض ذلك القول ، فردّه على من تكلم به ؛ وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره بقول من قال ، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، وقد عصب على رأسه بعصابة ، وعليه قطيفة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ! ثم قال :

أما بعد ، أيها الناس ، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ؟ فوالله ، لئن طعنتم في إمارتي أسامة ، لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله .

« وايْمُ الله ! إن كان للإمارة لخليقاً ، وإن ابنه من بعده لخليق بالإمارة ؛ وإن كان لأحب الناس إليّ ، وإن هذا لمن أحبّ الناس إلي ، إنهما لمخيَّلان[1] لكل خير ، فاستوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم »[2] .

وهكذا توافق في توجيه النقد لتأمير أسامة : المنافقون وبعض المهاجرين ، ثم أعلن بعض الأنصار انضمامهم لهذا النقد بعد وفاة النبي ﷺ ، كما سنوضح . والرسول ﷺ يؤكد للناس جميعاً أن أسامة كأبيه أهل للقيادة ، وجدير بالإمارة ، ويوصيهم في مرض موته بقوله : « أنفدوا بَعْث أسامة » .

---

(١) أي مَظِنَّتان لكل خير .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١٢٠/١ ، الطبقات الكبرى : ٦٦/٤ ، حياة الصحابة : ٦٢٧/١ ومابعدها .

مرض النبي عليه الصلاة والسلام :

بينما كان الجيش يتجهز ، ويتأهب الناس لغزو الشام ، اشتكى رسول الله ﷺ ، واشتد عليه الصداع والمرض في يوم السبت لعشر ليال خلون من ربيع الاول سنة ١١ هـ فتوقف سير الجيش ، انتظاراً لمعرفة حال رسول الله ﷺ .

وجاء المسلمون الذين سيخرجون مع أسامة ، يودعون رسول الله ﷺ ، وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ورسول الله يقول : « أنفذوا بعث أسامة » ، ويؤكد النبي مقالته ، كلما حدّثه متحدث في شأن بعث أسامة[١] .

دعاء النبي لأسامة :

ثم عاد الناس إلى المعسكر ليلة الأحد ، ونزل أسامة يوم الأحد ،ورسول الله ﷺ ثقيل مَغْمور ،وهو اليوم الذي لدّوه[٢] فيه . فدخل على رسول الله ﷺ ، وعيناه تهملان ، وعنده العباس، والنساء حوله ، فطأطأ عليه أسامة ، فقبّله ــ ورسول الله ﷺ لايتكلم ــ فجعل يرفع يديه إلى السماء ، ويصبّهما على أسامة .

قال أسامة رضي الله عنه : فأعرف أنه كان يدعو لي .

---

(١) وهذا البعث ليس غزوة مؤتة (أسد الغابة : ١/٦٦) .

(٢) لَدّوه : أي سقوه في حال المرض من الأدوية في أحد شقي الفم .

قال أسامة : فرجعت إلى معسكري . فلما أصبح يوم الاثنين ، غدا من معسكره ، وأصبح رسول الله ﷺ مُفيقاً [1] .

فجاءه أسامة فقال : « اغدُ على بركة الله » فودعه أسامة ، ورسول الله ﷺ مفيق،وجعل نساؤه يتماشطن سروراً براحته [2].

وركب أسامة إلى معسكره ، وصاح في أصحابه باللحوق إلى العسكر ، فانتهى إلى معسكره ، ونزل ، وأمر الناس بالرحيل وقد مَتَع [3] النهار .

وبينا أسامة يريد أن يركب من الجُرْف ، أتاه رسول أم أيمن ــ وهي أمه رضي الله عنها ــ يخبره أن رسول الله ﷺ يموت . فأقبل أسامة إلى المدينة ، ومعه عمر وأبو عبيدة ، فانتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو يموت . فتوفي عليه السلام حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ١١ هـ .

ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة ، ودخل

---

(١) اي رجعت إليه الصحة ، والحديث رواه الترمذي عن اسامة (جامع الأصول : ٢٦/١٠) .

(٢) حياة الصحابة : ٦٢٩/١ ومابعدها ، الطبقات الكبرى : ٦٨/٤ ، منتخب كنز العمال : ١٣٦/٥ ، مسند احمد : ٢٠١/٥ .

(٣) اي طال وامتد وتعالى ، والمراد هنا : هو المعنى الأخير .

بريدة بن الحصيب رضي الله عنه بلواء أسامة معقوداً حتى أتى به باب رسول الله فغرزه أي ركزه[1] .

موقف أبي بكر من تنفيذ جيش أسامة بن زيد :

لما تمت البيعة لأبي بكر بعد اجتماع الصحابة في سقيفة بني ساعدة[2] ، بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، أمر أبو بكر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ، ولا يحله أبداً حتى يغزو بهم أسامة . لكن أبابكر اصطدم فور الوفاة بأعظم فتنة في الاسلام بعد الرسول وهي ردة العرب[3] وامتناع آخرين من أداء الزكاة إليه ، وعدم بقاء مقام لصلاة الجمعة في بلد سوى مكة والمدينة والطائف وجواثا في البحرين .

ولما فرغ الناس من البيعة واطمأنوا،أَمَر أبو بكر بإنفاذ بعث أسامة إلى الشام قائلاً له : امض لوجهك الذي بعثك له رسول الله ﷺ ، فخرج أسامة من الجرف في غرة ربيع الآخر سنة ١١ هـ.

لكن كثيراً من الناس (مهاجرين وأنصاراً) ، رأوا ألا ينفذ جيش أسامة ، للحاجة إليه فيما هو أهم ، لأن ما جهز بسببه في حال السلامة وكان عمر بن الخطاب من جملة من أشار بذلك . وقال

---

(١) حياة الصحابة : ٦٣٠/١ .

(٢) انظر قصة السقيفة في حياة الصحابة : ٦٠٨/١ .

(٣) البداية والنهاية : ٣٠٤/٦ .

هو وغيره لأبي بكر : أمسك أسامة وبعثه ، فإنا نخشى أن تميل علينا العرب إذا سمعوا بوفاة الرسول ﷺ [1] .

وقالت الأنصار لعمر الذي طلب إليه أن يكلم أبا بكر في ذلك : فإن أبى إلا أن نمضي ، فأبلغه عنا ، واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة .

فجاء عمر بأمر أسامة ، فأتى أبا بكر ، فأخبره بما قال أسامة الذي وقف بالناس ، وكان أسامة قد قال لعمر : ارجع إلى خليفة رسول الله ، فاستأذنه، يأذن لي ، فليرجع الناس، فإن معي وجوههم وحدّهم [2] ولا آمن على خليفة رسول الله [3] .

فامتنع الصديق من ذلك وأبي أشد الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة ، وقال كلمته الرائعة المشهورة :

والله ، لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ، ولو أن الطير تَخْطَفنا ، والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة ، وآمر الحرس يكونون حول المدينة [4] .

---

(١) البداية والنهاية : ٣٠٤/٦ ، حياة الصحابة : ٦٣١/١ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١١٨/١ .

(٢) المراد من الحدّ هنا : الشوكة والقوة .

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١١٧/١ ، حياة الصحابة : ٦٣٤/١ .

(٤) البداية والنهاية : ٣٠٤/٦ .

وكان مما قاله الصدّيق أيضاً في هذا الموقف :

لو اختطفتني الكلاب والذئاب ، لم أردّ قضاءً قضاه رسول الله ﷺ ؛ كيف ورسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي من السماء يقول : أنفذوا جيش أسامة . والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني ، لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته . والذي نفسي بيده ! لأن تميل علي العرب أحب إلي من أن أحبس جيشاً بعثه رسول الله ﷺ .

فقال عمر : فإن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة .

فوثب أبو بكر ، وكان جالساً ، فأخذ بلحية عمر ، وقال مُغْضَباً :

ثَكِلَتْكَ أمك ، وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنْزِعَه ؟!

فرجع عمر إلى الناس ، فسألوه : ما صنعت ؟ فقال : امضوا ثكلتكم أمهاتكم ، ما لقيت في سبيلكم اليوم من خليفة رسول الله !!(١) .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١/١١٧ ، حياة الصحابة : ١/٦٣٢ ، ٦٣٦ ، البداية والنهاية : ٦/٣٠٤ .

تشييع الخليفة أبي بكر ماشياً لأسامة القائد راكباً :

ولما تحرك الجيش نحو مهمته السامية إلى الشام ، بقيادة القائد الفتى ، قام أبو بكر نفسه بتشييع الجيش مشجعاً لهم ، وهو ماشٍ ، وأسامة راكب ، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر .

فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، لتركَبَنَّ أو لأنزلنَّ . فقال أبو بكر : والله لا تنزل ، ووالله لا أركبُ ، وما عليَّ أن أغبِّر قدمي ساعة في سبيل الله ، فإن للغازي بكل خُطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، ويمحا عنه سبعمائة خطيئة .

ثم قال لأسامة : أستودع الله دينك ، وأماتتك وخواتيم عملك ، وأوصيك بإنفاذ ما أمرك به رسول الله ، امض يا أسامة في جيشك للوجه الذي أمرت به ، ثم اغز حيث أمرك رسول الله ﷺ من ناحية فلسطين وعلى أهل مؤتة ، فإن الله سيكفي ماتركت، ولكن إن رأيت أن تعينني بعمر بن الخطاب فإنه ذو رأي ومناصح للاسلام ، فافعل . فأذن له بالبقاء[1] .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١/١١٧ ، ١١٩ ، الطبقات الكبرى : ٤/٦٧ ، البداية والنهاية : ٦/٣٠٥ ، حياة الصحابة : ١/٦٣٣ ، ٦٣٥ ومابعدها .

وصية ابي بكر التاريخية المشهورة لأسامة بأسمى مبادىء المدنية والحضارة :

أوصى أبو بكر الصديق أسامة وجيشه بعشر وصايا ، تعد أرقى وأسمى ماتوصلت إليه الانسانية من مبادىء الحرب ، للحفاظ على أصول المدنية والحضارة ، وحصر نطاق القتال في المحاربين ، وحرمة التعرض للمدنيين من امرأة وطفل ، وشيخ كبير ، وراهب ، والحفاظ على الأشجار ، إلا للضرورات الحربية.

فقال : يا أيها الناس قفوا ، أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني: لاتخونوا ، ولاتغلّوا [1] ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تنلفوا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على أقوام يأتونكم بآنية فيها أنواع الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعدما يبقى بقية ، فاذكروا اسم الله عليها . وسوف تلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيوف خفقاً . اندفعوا باسم الله ، أفناكم الله [2] بالطعن والطاعون [3] .

---

(١) أي لا تسرقوا من الغنيمة قبل التخميس .

(٢) أي إن لم تقاتلوا في سبيل الله أفناكم الله ... الخ .

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١/١١٧ ومابعدها .

وذكر الإمام مالك في الموطأ [1] هذه الوصية ليزيد بن أبي سفيان ، ولفظها ما يأتي : عن يحيى بن سعيد : أن أبا بكر الصديق بعث جيوشاً إلى الشام ، فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان[2] ، وكان أمير ربع من تلك الأرباع ، فزعموا أن يزيد قال لأبي بكر : إما أن تَرْكبَ ، وإما أن أنزل ، فقال أبو بكر : ما أنت بنازل ، وما أنا براكب ، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله ، ثم قال له :

إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حَبسوا أنفسهم ، فذَرْهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له ، وستجد قوماً فَحصُوا عن أواسط رؤوسهم من الشعر ، فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف ، وإني موصيك بعشر :

لا تقتُلنَّ امرأة ، ولا صبياً ، ولا كبيراً هرماً ، ولا تقطعنَّ شجراً مُثْمراً ، ولا تُخَرِبنَّ عامراً ، ولا تعقِرنَّ شاة ولا بعيراً إلا لمَأْكلَة ، ولا تَحْرِقنَّ نخلاً ، ولا تُغَرِقَنَّه ، ولا تَغْلُل ، ولا تجبُن .

ولعل الحادثة تكررت ، لكن الأصح تاريخياً أنها حدثت مع أسامة ، وقد روى مالك الحادثة الثانية بلفظ « زعموا » .

---

(1) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك : ٦/٢ .

(2) من المعلوم أن أبا بكر بعد انتصاره على المرتدين ، بعث أبا عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد ابن أبي سفيان ، امراء إلى الشام (جوامع السيرة : ص٣٤١) .

وأضاف الإمام مالك : أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامل من عـمّاله : أنـه بلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سَرية يقول لهم : اغزُوا باسم الله ، في سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ، لا تَغُلّوا ، ولا تَغْدِروا ، ولا تُمثّلوا ، ولا تقتلوا وليداً، وقل ذلك لجيوشك وسراياك إن شاء الله،والسلام عليك[1].

وهذا يبين مصدر وصية أبي بكر التي تعد أروع وثيقة في الحرب والحياد ، وحفظ كرامة الإنسان ، قبل أن تظهر هـذه المبادىء في عالم الغرب في القرن العشرين .

نجاح اسامة في مهمته :

لقد حقق هذا الجيش الصغير بقيادة أسامة نجاحاً باهراً ، كما قدّر الرسول ﷺ قبيل وفاته ، فكان خروجه بعد الوفاة من أكبر المصالح الاسلامية في داخل الجزيرة العربية وخارجها ، وكان أسامة في تخطيطه وتنفيذه المهمة المطلوبة وخوضه المعركة مظفراً موفقـاً .

سار أسامة بجيشه ، ونفذ كل ما أمر به رسول الله ﷺ ، فأوطأ خيل المسلمين « تخوم البلقاء » و « قلعة الداروم » في

---

(١) تنوير الحوالك : ٢/٧ .

فلسطين ، وشن الغـارة على « أبنى » فأحرق وخرّب بقـدر ما تقتضيه ضرورة الحرب ، وقال لأصحابه قبل الهجوم[1] :

اجعلوها غـارة ، ولا تمعنوا في الطلب ، ولا تفترقوا ، واجتمعوا ، وأخفوا الصوت ، واذكروا اسـم الله في أنفسكم ، وجردوا سيوفكم ، وضعوها فيمن أشهروا عليكم السلاح •

ثم رفع عليهم الغارة ، فما نبح كلب ، ولا تحرك أحد ، ولا شعروا إلا بالقوم قد شنوا عليهم الغارة ، ينادون بشعارهم : يا منصور أمت •

حوار بين بريدة وأسامة حول الإنذار الحربي :

وفي قضية مباغتة العدو دون إنذار سابق ــ وهو أمر جائز شرعاً وفي القانون الدولي الحديث[2] ــ حدث حوار بين بريدة وأسامة [3] •

فقال بُريدة بن الحُصَيب لأسامـة : يا أبا محمد ، إني شهدت رسول الله ﷺ يوصي أباك أن يدعوهم إلى الاسلام ، فإن أطاعوه خيرهم ، فإن أحبّوا أن يقيموا في ديارهم ، ويكونوا

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١/١٢٣ •

(٢) راجع كتابنا « آثار الحرب في الفقه الاسلامي » ــ دراسة مقارنة •

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١/١٢٣ •

كأعوان المسلمين ، فلا شيء لهم في الفيء ولا في الغنيمة ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، وإن تحولوا إلى دار الاسلام ، كان لهم ماللمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين •

فقال أسامة : هكذا وصية رسول الله لأبي ، ولكنه أمرني ــ وهو آخر عهده إلي ــ أن أسرع المشي ، وأسبق الأخبار ، وأن أشن الغارة عليهم بغير دعاء (أي إنذار) ، فأحرّق وأخرّب •

فقال بريدة : سمعاً وطاعة لأمر رسول رسول الله ﷺ [1] •

ثأر أسامة لأبيه :

وكان أسامة قد خرج على فرس أبيه التي قتل عليها أبوه يوم مؤتة ، وكانت تدعى : « سبحة » ، وقتل قاتل أبيه في الغارة • كما أخبره به بعض أهل أبنى •

عودة الجيش واستقبال الخليفة والمسلمين له :

ثم عاد أسامة بجيشه سالماً غانماً إلى المدينة ، بعد غياب خمسة وثلاثين يوماً ، سار عشرين في بدأته ، وخمس عشرة في رجعته • وكان أسامة أرسل بشيره من وادي القرى بسلامة

---

(١) لاحظ مدى وعي وعقلية أسامة لبنود مهمته الدقيقة ، ولاحظ أيضاً مدى طاعة بريدة وغيره لأوامر الرسول عليه السلام ، كما أنه يجدر الانتباه إلى هذا النقاش الموضوعي الهادىء لتجلية الأمر والبحث في كيفية تطبيق أحكام الشريعة .

المسلمين ، وأنهـم أغاروا على العدو ، فأصابوهم ، فلما سمع المسلمون بقدومهم ، خرج أبو بكر مع المهاجرين ، وخرج أهل المدينة ، حتى العواتق (أي الشابات) ، وسُروا بسلامة أسامة ومن معه من المسلمين ، ودخل يومئذ على فرسه « سبحة » كأنما خرج من ذي خشب (موضع) ، عليه الدرع ، واللواء أمامه يحمله بُرَيْدة ، حتى انتهى به إلى المسجد النبوي ، فدخل ، فصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومعه اللواء ، فمازال معقوداً في بيته حتى توفي[1] .

وفي هذا الاستقبال الحافل ردد الناس قول النبي ﷺ في أسامة : « إنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

أهم آثار هذا البعث :

وقد حقق أسامة بهـذا النصر مجداً سامقاً ، إذ هاجـم الامبراطورية الرومانية في عقر دارها ، وجرّأ المسلمين العرب على مهاجمتها ، ونزع هيبة الروم من قلوب المسلمين ، ومهد الطريق أمامهم لفتح بلاد الشام ومصر .

ولعل أروع أسباب النصر : هو توقيت البعث بعد الوفاة ، إذ لم يخطر ببال أحد المبادرة بمثل هذا الهجوم في وقت شغل

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١٢٤/١ ، حياة الصحابة : ٦٣١/١ .

فيه المسلمون بوفاة نبيهم ، وبردّة العرب ، وباستفحال خطر مانعي الزكاة .

وبرهان ذلك أن خبر نَعْي رسول الله ، وإغارة أسامة في ناحية أرضه ، جاء في وقت واحد ، وبخبر واحد ، فقالت الروم : ما بال هؤلاء يموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا .

والجدير بالذكر أن الجيش عاد سالماً ، يحمل غنائم كثيرة .

قال عروة : فما رئي جيش كان أسلم وأغنم من ذلك الجيش[1] .

وكذلك أحدث هذا الجيش رهبة بين العرب في الجزيرة العربية ، فما إن كان أسامة يمرّ بقبيل يريدون الارتداد ، إلا قالوا : لولا أن لهؤلاء قوة ، ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم[2] .

وكان لهذا الجيش فضل كبير في تثبيت الاسلام ، لأنه استطاع هزيمة الروم وقتلهم ، ثم رجعوا سالمين ، فثبت الناس على الاسلام[3] .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٤/٢ .

(٢) المرجع السابق : ١٢٥/١ ، البداية والنهاية : ٣٠٤/٦ .

(٣) المرجعان السابقان .

والقصد الأول كان مجرد إرهاب الروم ، لأن أسامة مضى حتى أغار عليهم ، ثم أمرهم أن يُعظِّموا الجراحة ، حتى يرهبوهم ثم رجعوا وقد سلموا وغنموا (١) .

وبه تجلت عبقرية أبي بكر ، ومدى حزمه ووعيه وعمق فكرته وإصابة رأيه ، قال أبو هريرة : والله الذي لا إله إلا هو ، لولا أن أبا بكر استخلف ، ما عُبد الله ، ثم قال الثانية ، ثم قال الثالثة . فقيل له : يا أبا هريرة ما تقول ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ وجه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام ، فلما نزل بذي خشب ، قبض النبي ﷺ ، وارتدت العرب حول المدينة ، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا بكر ، رُدّ هؤلاء ، توجههم إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة ؟! فقال : والذي لا إله إلا هو ، لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي ﷺ مارددت جيشاً ، وجهه رسول الله ، ولا حللت لواء عقده رسول الله (٢) .

وهكذا بحزم أبي بكر وصلابته في تنفيذ أمر النبي ﷺ بإنفاذ جيش أسامة ، تحققت آثار بعيدة في تاريخ الاسلام ، وكان ذلك من أعظم المصالح للاسلام وللمسلمين : على الصعيد

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٤ ، الطبقات الكبرى : ٦٧/٤ .

(٢) البداية والنهاية : ٣٠٥/٦ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر : ١٢٤/١ وما بعدها .

الداخلي في الجزيرة العربية ، إذ أوقف تنفيذ إرسال الجيش ردة العرب ، وتثبت الاسلام في كثير من المواطن مثل جُهينة وغيرها من قضاعة • وعلى الصعيد الخارجي إذ أرهب المسلمون دولة الرومان ، واستبعدوا فكرة مهاجمة المسلمين في ديارهم ، انتهازاً لفرصة موت نبيهم وقائدهم •

ولا شك بأن تلك النتائج ما هي الا أثر واضح من مغيبات النبوة ، واستطلاع وجه المستقبل المنتظر ، وهو فضل من الله عظيم ، ونعمة كبرى تستحق الشكر والتقدير •

مشاركة أسامة في محاربة المرتدين :

وقد استفيد من تجارب أسامة الحربية ، فوجهه أبو بكر عقب عودته من الشام لقتال المرتدين في اليمامة في أثر خالد بن الوليد ، فلحق به ، وشاركه في القتال حتى النصر[١] •



(١) البدء والتاريخ لأبي زيد البلخي : ١٥٢/٥ .

الفصل الخامس

مَنزلتُهُ عِنْدَ النّبيّ
ومكانته عند الصحابة

منزلته عند النبي عليه الصلاة والسلام :

احتل أسامة في نفس النبي ﷺ مكانة فريدة ، فكان محبوباً له ، وكان يسمى « حب رسول الله »[1] ، حتى أصبح مستشاراً عند النبي ، وشفيعاً مجاب الطلب مقبول الشفاعة عنده عليه السلام كما بينا سابقاً ، وهو الذي نصبه قائداً عقد له لواءً له في مرضه الذي مات فيه ، وبرز به بين الناس[2] ، وقد أمر أبو بكر بُريدة ابن الحُصَيب بعد وفاة النبي أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ، ولا يَحُلّه أبداً حتى يغزو بهم أسامة . فقال بريدة : فخرجت باللواء حتى انتهيت به إلى بيت أسامة ، ثم خرجت به إلى الشام

---

(١) أسد الغابة : ٦٤/١ .

(٢) انظر القصة في رواية الترمذي عن أسامة ، وفيها دعاء النبي لأسامة في مرض موته (جامع الأصول : ٢٦/١٠) .

معقوداً مع أسامة ، ثم رجعت به إلى بيت أسامة ، فما زال معقوداً في بيته حتى توفي[1] .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « بعث رسول الله ﷺ بَعْثاً ، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد ، فطعن بعض الناس في إمارته ، فقال رسول الله ﷺ : إن تَطْعَنوا في إمارته ، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ، وايْمُ الله ، إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لمن أحَبِّ الناس إلي . وإن هـذا لمن أحبِّ الناس إليَّ بعده »[2] .

مكانته بين الصحابة :

سرى أثر الحب النبوي لأسامة بـين الصحابة ، فأحبوه وعظموه ، لأن النبي ﷺ أوصاهم به فقال : « إني لأرجو أن يكون من صالحيكم ، فاستوصوا به خيراً »[3] .

وكان على حداثة سِنه مهيباً مسموع الكلمة ، يجتمع مع كبار الصحابة ، كما كان عبد الله بن عباس [حبر الأمة وترجمان القرآن ، والذي كان ابن ثلاث عشرة سنة يوم وفاة الرسول ﷺ]

---

(١) حياة الصحابة : ٦٣٠/١ وما بعدها .

(٢) جامع الأصول : ٢٦/١٠ .

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٤/٢ ، الطبقات الكبرى : ٦٧/٤ .

ذا منزلة عالية بين شيوخ الصحابة الكرام ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحبّه ويُدْنيه ويُقرِّبه ويشاوره مع أجلّة الصحابة ، ويقول عنه : ابن عباس فتى الكهول ، له لسان قؤول ، وقلب عقول[1] .

وكان عمر نفسه يجل أسامة ، فقد فضله في العطاء على ابنه عبد الله ، لأن أباه زيداً كان أحب إلى رسول الله من عمر ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله من عبد الله بن عمر ، فآثر حِبَّ رسول الله ﷺ على حبّ نفسه[2] .

قال عبد الله بن دينار : كان عمر بن الخطاب إذا رأى أسامة ابن زيد ، قال : السلام عليك أيها الأمير ، فيقول أسامة : غفر الله لك يا أمير المؤمنين ، تقول لي هذا ؟ قال : فكان يقول له : لا أزال أدعوك ما عشت ، أيها الأمير ، مات رسول الله ﷺ ، وأنت علي أمير[3] .

وذكر المؤرخون الثقات أن عمر كان يقول :

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر : ٩٣٥/٣ .

(٢) جامع الأصول : ٢٧/١٠ وما بعدها ، منتخب كنز العمال: ١٣٥/٥ ، الإصابة : ٣١/١ .

(٣) رواه أبو يعلى وابن حبان والبيهقي في السنن وأحمد في المسند (منتخب كنز العمال : ١٣٥/٥) .

ما كنت لأحيي أحداً بالإمارة غير أسامة ، لأن رسول الله ﷺ قبض ، وهو أمير[1] .

ويروى أن عمر لم يلق أسامة قط إلا قال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، أمير أمَّره رسول الله ، ثم لم ينزعه ، حتى مات[2] .

ولقد أثبت أسامة في قيادة جيشه إلى الشام أنه ذو جَلَد على تحمل المشاق ، وذو شجاعة فائقة ، وعقيدة راسخة ، وعقلية راجحة متبصرة بالأحداث والنتائج ، مما أكسبه سمعة عالية ، وصيتاً وشهرة كبيرة بين الصحابة ، فقدروه وأحبوه ولمسوا بأنفسهم مدى إصابة الحق في اختيار النبي له للإمارة .

وكان عثمان رضي الله عنه يحب أسامة ويقربه إليه ويثق به ، وقد أرسله ــ حينما اشتدت عليه وطأة المعارضة ــ رسولاً إلى البصرة ، كما أرسل غيره إلى الكوفة ومصر والشام لمعرفة أسباب الاضطراب .

* * *

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٤ ، الطبقات الكبرى : ٤/٦٧ .

(٢) المرجع السابق : ٢/٣٩٥ .

الفصل السادس

اعتزاله الفتنة ومكانته العلمية

اعتزاله الفتنة :

اعتزل أسامة الفتن بعد قتل عثمان ، إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية[1] . قال علي بن خشرم : قلت لوكيع : مَنْ سلِم من الفتنة ؟ قال : أما المعروفون من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فأربعة : سعد بن مالك أي ابن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مَسْلَمة ، وأسامة بن زيد ، واختلط سائرهم . قال : ولم يشهد أمرَهم من التابعين أربعة : الربيع بن خُثيم ، ومسروق بن الأجدع ، والأسود بن يزيد ، وأبو عبد الرحمن السلمي[2] .

إلا أن أسامة كانت عاطفته مع الحق والعدل ، مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فهو بالرغم من أنه لم يبايع علياً ،

---

(1) الإصابة : ١/٣١ .

(2) الاستيعاب : ١/٧٧ .

ولا شهد معه شيئاً من حروبه ، إلا أنه أرسل له : إنك لو كنت في شِدْق الأسد ، لأحببتُ أن أكون معك فيه ، ولكنّ هذا أمر لم أره[1]. وذلك شبيه بقول عبد الله بن عمر : ما آسى على شيء ، كما آسى أني لم أقاتل الفئة الباغية مع علي رضي الله عنه[2] .

والسبب في اعتزاله الفتنة : هو التزامه الشديد بألا يقاتل من يقول : « لا إله إلا الله » ومعاهدته نفسه على ذلك ، بعد أن تورط في قتل نفس ، قالت تلك الكلمة .

قال أسامة لعلي : لو أدخلت يدك في فم تِنِّين[3] ، لأدخلت يدي معها ، ولكنك قد سمعت ما قال لي رسول الله ﷺ حين قتلت ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله .

والقصة كما ذكرناها سابقاً : أن أسامة أدرك كافراً في غزاة، هو ورجل من الأنصار ، فلما شهر عليه السلاح ، قال : أشهد أن لا إله إلا الله ؛ فما برحا حتى قتلاه ، فلما قدم أسامة على رسول الله ﷺ أخبره ذلك الخبر ، فقال : يا أسامة ، من لك بلا إله إلا الله ؟ فقلت : يا رسول الله ، إنما قالها تعوذاً من القتل ، فقال :

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : ٣٩٩/٢ ، الطبقات الكبرى : ٧١/٤ ، والشدق : جانب الفم .

(٢) الاستيعاب : ٧٧/١ .

(٣) التنّين : ضرب من الحيات .

من لك يا أسامة بلا إله إلا الله ؟ فوالذي بعثه بالحق،مازال يرددها علي ، حتى وددت أن مامضى من إسلامي لم يكن ، وأني أسلمت يومئذ .

فقلت : أعطي الله عهداً أن لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله [1] .

وبه آثر أسامة ألا يتورط في الشبهات ، كما فعل بعض كبار الصحابة ، كما ذكرنا ، إذ كان الأمر على غاية من الخطورة ، من كثرة ما أشيع في بيئة المسلمين من فتن ودسائس ، ودبرت مؤامرات ، وحدثت اغتيالات لم تكن في صالح الاسلام ، وإنما كانت وبالاً عليه وعلى أهله .

مكانته العلمية :

كما كان أسامة قائداً حربياً فذاً ، كان عالماً بارعاً ، فقيهاً مفتياً مُحدِّثاً ـ راوي الحديث عن النبي ﷺ ، يقصده الناس صحابة وتابعين لسماع أحاديثه عن النبي ، ولمعرفة رأيه وفتواه في بعض المسائل،فقد عدّه ابن حزم من أصحاب الفتيا من الصحابة[2]

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير : ١/٦٥، الطبقات الكبرى : ٤/٦٩، مسند أحمد : ٥/٢٠٧

(٢) ملحق بجوامع السيرة ـ أصحاب الفتيا من الصحابة : ص ٣٢١ .

كما روى عن الرسول ﷺ ١٢٨ حديثاً [١] ، ذكر منها الإمام أحمد في مسند أسامة ٩٣ حديثاً ، ولكن بعضها مكرر [٢] .

وقد روى عن أسامة من الصحابة : أبو هريرة وابن عباس، ومن كبار التابعين أبو عثمان النَّهدي ، وأبو وائل ، وجماعة آخرون . منهم ابناه الحسن ومحمد ، وكُرَيب ، وعمرو بن عثمان ابن عفان ، وعامر بن سعد ، وعروة بن الزبير وعبيد الله بن عُتبة، والحسن البصري ــ على خلاف فيه ــ ، والزِّبرقان بن عمرو بن أمية الضَّمري ، وقيل لم يلقه .

قال ابن المديني وأبو حاتم : إن الحسن البصري لم يسمع منه شيئاً [٣] .

ومن أحاديثه التي كان بها أسامة مرجعاً فاصلاً بين خلافات الصحابة . ما رواه عطاء بن أبي رباح قال : قلت لأبي سعيد الخدري : أرأيت قول ابن عباس في الصرف [٤] ؟ قال : قد زجرته ،

---

(١) ملحق بجوامع السيرة ـ أسماء الصحابة الرواة : ص٢٧٨ .

(٢) مسند احمد : ١٩٩/٥ ــ ٢١٠ .

(٣) الإصابة : ٣١/١ ، تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢٠٨/١ ، الاستيعاب : ٧٧/١ .

(٤) ذهب ابن عباس وأسامة بن زيد وزيد بن أرقم والزبير وابن جبير وغيرهم إلى ان الربا المحرم فقط : هو ربا النسيئة ، ولا يحرم ربا الفضل (راجع كتابنا الفقه : ٤٦٥/١ ، ط ثانية) .

وسوف أزجره ، قال : ثم أتاه فقال لــه : أرأيت قولك ، أشيء سمعته من رسول الله ﷺ ، أو شيء وجدته في كتاب الله ؟ قال : كلا ، أما رسول الله ﷺ، فأنتم أعلم به ، وأما كتاب الله فلا أعلمه . ولكن حدثني أسامة بن زيد أن رسول لله ﷺ قال : إنما الربا في النسيئة[1] .

نماذج من أحاديث أسامة بن زيد :

تمتاز أحاديث أسامة أنها واردة في أصول الأحكام ، وتقرر مبادىء الاسلام العظمى في السياسة والحكم ، وعلاقة المسلمين بغيرهم ، وفي المعاملات والعبادات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي إقامــة الحدود ، والصــلاة ، والحرص على مبدأ التوحيد .

وسأختار نماذج من هذه الأحاديث من مسند أحمد ، وقد وردت تحت عنوان :

حديث أسامة بن زيد حِبّ رسول الله ﷺ .

١ ـ حديثه في ربا النسيئة :

هذا الربا هو البيع نسيئة إلى أجل ، ثم الزيادة عند حلول الأجل . أو هو تأخير الدين في نظير الزيادة على مقداره الأصلي. ـ وهو ربا الجاهلية ـ أو هو تأخير قبض أحد البدلين في بيع المال

---

(١) مسند أحمد : ٥/٢٠٩ ، تاريخ ابن عساكر : ٢/٣٩٢ .

الربوي بجنسه ؛ كبيع مد حنطة منجزاً بمد حنطة مؤجلاً ، سواء تساوى المقدار أو الكمية ، أم زاد المؤجل على المعجل .

وكان أسامة وابن عباس وزيد بن أرقم والزبير وابن جبير وغيرهم يرون أن الربا المحرم فقط : هو ربا النسيئة ، لما يرويه أسامة أن رسول الله ﷺ قال : لا ربا فيما كان يداً بيد ، قال يعني : إنما الربا في النَّساء . وفي لفظ : الربا في النسيئة ، أو : ليس الربا إلا في النسيئة . أو : لا ربا إلا في الدين ، أو قال : في النسيئة (١) .

وأما ربا الفضل ـ وهو زيادة أحد البدلين على الآخر في مبادلة المال الربوي بجنسه مناجزة ـ فليس في رأيهم بحرام .

والحقيقة أن ربا الفضل ثبت تحريمه بأحاديث كثيرة ، منها حديث صحيح رواه أبو سعيد الخدري وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والحنطة بالحنطة ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل ، والفضل ربا » .

لذا نقل جابر بن زيد أن ابن عباس رجع عن قوله ، ثم جاء إجماع التابعين بتحريم الربا بنوعيه .

---

(١) رواه الشيخان واحمد (مسند احمد : ٥/٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩) .

وأما تأويل حديث « لا ربا إلا في النسيئة » فهو بيان الربا الأكمل الأعظم خطورة ، الأكثر وقوعاً ، الأشد عقوبة . أو أنه ورد مورد الجواب عن سؤال سابق ، فكأن الراوي سمع قول النبي ﷺ ولم يسمع ما تقدم من السؤال ، أو لم يهتم بنقله[1] .

٢ً – فتنة المرأة :

عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ماتركت بعدي فتنة أضرّ على أمتي من النساء على الرجال »[2] .

٣ً – منع الإرث بسبب اختلاف الدّين :

عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال : « لايرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم »[3] .

٤ً – الحجر الصحي :

حدث أسامة سعداً أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض ، وأنتم بها ، فلا تخرجوا منها »[4] .

---

(١) كتابنا « الفقه الاسلامي في أسلوبه الجديد » : ١/٤٦٥ – ٤٧٠ .

(٢) مسند أحمد : ٥/٢٠٠ ، ٢١٠ .

(٣) مسند أحمد : ٥/٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ .

(٤) المرجع السابق : ٥/٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .

وهذا من قبيل الأخذ بالأسباب فإنها لاتمنع القدر ، ولكن لابد منها . وأما الأحاديث التي تقرر بطلان تأثير العدوى ، فمعناها تأثيرها بذاتها بدون تدخل الارادة الإلهية .

٥ً ـ تحديد اتجاه القبلة في الصلاة :

أخبر أسامة بن زيد أن النبي ﷺ لما دخل البيت ، دعا في نواحيه كلها ، ولم يصل فيه ، حتى خرج ، فلما خرج ، ركع ركعتين في قِبَل (أي ناحية) الكعبة ، وقال : هذه القبلة .

وهناك حديث آخر رواه أسامة نفسه أن رسول الله ﷺ صلى في البيت . فتعارض الحديثان[١] .

٦ً ـ النهي عن حب اليهود :

عن أسامة بن زيد ، قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي في مرضه نعوده ، فقال له النبي ﷺ : « قد كنت أنهاك عن حب يهود » ، فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زُرَارة ، فمات[٢] .

---

(١) مسند أحمد : ٢٠١/٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، هذا وإن جمهور العلماء يقدمون المثبت على النافي ، فيجيزون الصلاة داخل الكعبة (الوسيط في أصول الفقه للمؤلف : ص ٦٣٥ وما بعدها ط ثالثة) .

(٢) المرجع نفسه : ٢٠١/٥ .

٧ ـ جمع التأخير بين المغرب والعشاء في المزدلفة :

قال أسامة : جمع رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء بالمزدلفة[١] .

وهذا الحديث المبيح لهذا الجمع هو من نسك الحج عند الحنفية ، فلا يجوز في غيره من الأسفار . وأجاز جمهور الفقهاء كلاً من جمع التأخير والتقديم عملاً بهذا الحديث .

٨ ـ الصلاة في المقابر :

عن أسامة بن زيد قال : قال لي رسول الله ﷺ : أدْخِل عليَّ أصحابي ، فدخلوا عليه ، فكشف القناع ، ثم قال : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[٢] .

٩ ـ تحريم التصوير واقتناء الكلاب :

قال أسامة بن زيد : دخلت على رسول الله ﷺ ، وعليه الكآبة ، فسألته : ماله ؟ فقال : لم يأتني جبريل منذ ثلاث . قال : فإذا جرو كلب بين بيوته ، فأمر به ، فقتل ، فبدا له جبريل عليه السلام ، فهشَّ[٣] إليه رسول الله ﷺ حين رآه ، فقال : لَمْ تأتني ؟ فقال : إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا تصاوير[٤] .

---

(١) مسند أحمد : ٥/٢٠٢ ، ٢١٠ .

(٢) المرجع نفسه : ٥/٢٠٤ .

(٣) هَشَّ يَهِش هشاشة : إذا خف إليه وارتاح له .

(٤) مسند أحمد : ٥/٢٠٣ .

١٠ ــ البكاء المباح على الميت :

عن أسامة بن زيد قال : أرسلتْ إلى رسول الله ﷺ بعض بناته أن صبياً ــ ابناً أو ابنة ــ قد احتضرت ، فاشْهدنا (أي احضرنا) ، قال : فأرسل إليها يَقْرَأُ السلام ، ويقول : إن لله ما أخذ ، وما أعطى ، وكل شيء عنده إلى أجل مسمى ، فلتصبر ، ولتحتسب ، فأرسلت تقسم عليه ، فقام وقمنا ، فرفع الصبي إلى حِجْر أو في حجر رسول الله ﷺ ، ونفسه تَقَعْقع (أي تضطرب وتتحرك) ، وفي القوم سعد بن عبادة ، وأبي ــ أحسب ــ ففاضت عينا رسول الله ﷺ ، فقال له سعد :

ما هذا يا رسول الله ؟

قال : « هذه رحمة يضعها الله قلوب من يشاء من عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »[١] .

١١ ــ أصحاب الجنة وأصحاب النار :

عن أسامة قال : قال رسول الله ﷺ : « قمت على باب الجنة ، فإذا عامة من دخلها المساكين، وإذا أصحاب الجَدّ (الغنى) وقال يحيى بن سعيد وغيره : إلا أصحاب الجَدّ محبوسون ، إلا أصحاب النار فقد أمر بهم إلى النار .

وقمت على باب النار ، فإذا عامة من يدخلها النساء »[٢] .

---

(١) مسند أحمد : ٥/٢٠٤ ، ٢٠٥ وما بعدها ، ٢٠٧ .

(٢) المرجع السابق : ٥/٢٠٥ ، ٢٠٩ .

١٢ ـ مخالفة آمر المعروف وناهي المنكر قوله :

عن أبي وائل قال : قيل لأسامة : ألا تكلم عثمان ؟ قال : إنكم ترون أني لا أكلمه ألا أُسمعكم ، والله لقد كلمته فيما بيني وبينه ما دون أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أول من افتتحه ، والله ، لا أقول لرجل : إنك خير الناس ، وإن كان علي أميراً ، بعد إذ سمعت رسول الله ﷺ يقول . قالوا : وما سمعته يقول ؟

قال سمعته يقول : يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق به أقتابه (أمعاؤه) ، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه ، فيُطيف به أهل النار ، فيقولون : يا فلان مالك ، ما أصابك ، ألم تكن تأمرنا بالمعروف ، وتنهانا عن المنكر؟

فقال : كنت آمركم بالمعروف ، ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه (١) .

١٣ ـ الحفاظ على صلاة الجماعة :

عن الزِّبْرقان : أن رهطاً من قريش ، مرَّ بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون ، فأرسلوا إليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى ، فقال : هي العصر .

---

(١) مسند أحمد : ٥/٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

فقام إليه رجلان منهم ، فسألاه ، فقال : هي الظهر ، ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد ، فسألاه ، فقال : هي الظهر ، إن رسول الله ﷺ كان يصلي الظهر بالهجير[1] ، ولا يكون وراءه إلا الصف والصفان الناس في قائلتهم وفي تجارتهم ، فأنزل الله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » قال : فقال رسول الله ﷺ : لينتهينّ رجال ، أو لأحرّقنّ بيوتهم[2] .



(١) الهجير : نصف النهار عند اشتداد الحر .

(٢) مسند أحمد : ٢٠٦/٥ .

خاتمة

أسامة بن زيد أحد الأبطال والعلماء البارزين من صحب نبي الله الذين سطروا بجهادهم وحكمتهم أنضر صفحات تاريخ الاسلام . فضائله كثيرة ، ومناقبه متعددة ، ومزاياه فريدة ، فهو الرائد الأول أو القدوة العالية في مهاجمة دولة الرومان العظمى بجيش صغير لايتجاوز الثلاثة آلاف ، فيهم ألف فرس ، ومنهم نخبة المهاجرين والأنصار .

فهو بحق رجل في أمة قدّر الله لها أن تبني أمجاداً سامقة ، وعزة عالية على أساس الفضيلة والتقوى والاستقامة في السيرة والسلوك ، وفي أثناء الحرب والسلام ، لا لشيء إلا لأمر واحد ، هو تصحيح عقيدة الناس ، وإعلاء كلمة الله والحق والعدل ، وإبراز جوهر معنى توحيد الإله ، وتجسيد معنى عبودية العباد لهذا الإله فيما يفعلون ، وفيما يستهدفون ، وإلى غاية حتمية لابد واردون لها ، ماثلون في محكمتها أمام الحاكم العادل القهار لإنصاف المظلومين ومكافأة الأبرار الصالحين .

وهو بحق أيضاً أمة في رجل ، تجسدت فيه كل معاني الرجولة الحقة ، والانسانية الكريمة ، والعطاء المتجدد ، بهمّة لا تعرف الفتور ، وعزيمة صلبة لا تتأثر بالرياح الهوج .

وقد هيأ الله تعالى له عناية خاصة في صغره وشبابه ، فنشأ وترعرع في بيت النبوة ، ولم يعرف غير الاسلام ديناً ، وتخلق بأخلاق القرآن ، وتربى على منهج الوحي ، وتأثر بنحو واضح بصاحب الخلق العظيم ـ مربيه ومؤدبه ومحبّه رسول الله ﷺ ، فهو « حِبّ رسول الله » .

كان كبيراً في نظر الصحابة وهو شاب صغير ، وعظيماً في تقدير الناس ، وهو فتى حدث ، بما أسبغ الله عليه من نعمة العقل الراجح ، والأناة والحكمة في معالجة الأمور ، ومناقشتها،والجرأة والشجاعة في مواجهة الأحداث .

وهو وإن أخطأ مرة بقتل رجل أعلن الشهادة باجتهاد منه ، ـ وهو أن هذا الرجل قالها اتقاء القتل وتهرباً من حرّ السلاح ـ؛ فإن هذا الخطأ أعطاه درساً إلى الأبد لا ينساه ، إذ العصمة لاتكون لغير نبي ، ولكن الأحداث تعلّم العاقل ، والمواعظ والعبر تنفذ إلى أعماق صاحب البصيرة والحكمة ، ذلك الدرس هو حرمة التعرض لمن أقبل على ساحة الإيمان ، والدهر بعدئذ حاكم عليه، ومبيّن مدى صدقه ، وما على البشر إلا أن يحكموا بالظاهر ، والله يتولى الأنفس والسرائر .

وخير ما نلمس من حياة أسامة بلورة معنى المساواة الاسلامية الحقة في شخصه في الحقوق والواجبات ، سواء في تطبيق أحكام الشريعة ، فلا يستثنى أحد من تطبيق الحدود والعقوبات لحسب أو نسب أو منصب أو جاه ، وتُرفض شفاعته

بشدة أمام الناس ، لأن مبدأ الشريعة لايعرف الزلفى والوساطة في تضييع الحقوق ؛ ولا يُفضَّل أحد على غيره بغير ميزان التقوى والعمل الصالح ، فالنبي الكريم أخو كل بر تقي وإن كان عبداً حبشياً ، وبريء من كل شقي ، وإن كان شريفاً قرشياً .

وأسامة الشاب القائد الفتى أروع أنموذج للشباب والجيل الصاعد في بطولته النادرة ، وشجاعته الخارقة ، وقدرته على تحمل المشاق ، وتضحيته وصبره وجلده في اقتحام الصعاب ، وعقيدته الصادقة الصافية الراسخة التي لاتتزعزع بأي مـؤثر ، وعقليته النافذة المتبصرة بعواقب الأمور ، كالشيوخ المحنَّكين المجربين ، فلا يعرف الطيش والخفة والنَّزق في تصرفاته وسلوكه ، مما بوأه مكانة عالية في نظر كبار الصحابة ، فحاز الفخار في سن مبكرة ، وقدَّر مستوى المسؤولية ، فكان أهلاً لها ، متطلعاً إلى المزيد من الثقة به في تحمله الكثير من جهاتها ومطالبها .

وهـو بالإضافة لذلك قائد حربي محنَّك ، يضـع الخطة المناسبة لانتزاع النصر على الأعداء ، ويُحكِم تنظيم جيشه قبل المعركة ، ويعبىء نفسيات جنوده بأرفع وأعلى المعنويات ، ممـا جعله أمام جيشه رفيع القدر ، فأطاعوه ، واضح سمات الإخلاص، بيِّن الصراحة ، فأحبوه وتفانوا في إحراز الانتصارات ، بشجاعة وإقدام ، وصبر وجلد ، لأن الجند يتأثرون بالتأكيد بروحانية القادة ، وينصهرون في فلك القيادة الناجحة الحكيمة .

وهل بعد تزكية النبي له من تزكية : « إنه خليق للإمارة » استطاع إثبات كفاءته الرائعة في الداخل والخارج ، في السلم والحرب ، متحدياً نقد المعارضين الذين انتقصوه لصغر سنه ، فمضى لهدفه مرفوع الرأس ، متوج الجبين بإكليل الغار ، غير عابىء بالصعاب ، أو بنقد لاذع ممن لم يحسنوا التقدير ، وتلك هي مزية النفوس الكبيرة .

فرحم الله أسامة في الخالدين ، ورضي الله عن أسامة في المجاهدين ، وعطر الله ثرى أسامة في عظماء المسلمين ، وجعل الله مأواه أعلى جنات الرضوان مع الشهداء والنبيين ، ونفعنا الله تعالى بسيرته العبقة ، وبجهاده المشرف إلى يوم الدين ، وحشرنا في صفه بحبه وحب صحبه حتى يأتينا اليقين . والحمد لله رب العالمين .

الدكتور وهبة الزحيلي



المصادر

١ ــ جامع الأصول لابن الأثير الجزري ، مطبعة السنة المحمدية.

٢ ــ مسند الامام أحمدبن حنبل ، تصوير بيروت ـ المكتب الاسلامي ودار صادر .

٣ ــ عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ، الناشر محمد أمين دمج بيروت .

٤ ــ شرح مسلم للامام النووي ، مطبعة محمد توفيق بالقاهرة.

٥ ــ نيل الأوطار للشوكاني ، المطبعة العثمانية المصرية .

٦ ــ الطبقات الكبرى لابن سعد ، طبع بيروت .

٧ ــ الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، مطبعة نهضة مصر .

٨ ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري ، منشورات المكتبة الاسلامية ، طهران .

٩ ــ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، دار صادر ، بيروت .

١٠ ــ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ، دار صادر ، بيروت .

١١ ــ تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني ، نشر محمد سلطان النمنكاني بالمدينة المنورة .

١٢ ـــ السيرة النبوية لابن هشام ، طبع البابي الحلبي .
١٣ ـــ تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ، دار القاموس الحديث ، بيروت .
١٤ ـــ صفة الصفوة لأبي الفرج بن الجوزي، الطبعة الأولى بالهند.
١٥ ـــ تهذيب تاريخ ابن عساكر ، مطبعة روضة الشام سنة ١٣٢٩ هـ .
١٦ ـــ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير الدمشقي ، الطبعة الأولى مكتبة المعارف ، بيروت .
١٧ ـــ حياة الصحابة للعلامة محمد يوسف الكاندهلوي ، نشر دار القلم بدمشق .
١٨ ـــ جوامع السيرة ، وخمس رسائل اخرى لابن حزم ، دار المعارف بمصر .
١٩ ـــ الأعلام للزركلي ، الطبعة الثانية .
٢٠ ـــ قادة فتح الشام ومصر ، اللواء الركن محمود شيت خطاب ، دار الفكر بدمشق .
٢١ ـــ صور من حياة الصحابة (٣) للدكتور عبد الرحمن الباشا، مؤسسة الرسالة .

فهرس

الموضوع	الصفحة